
الهيئة
العامة
لقصور
الثقافة


آفاق عربية




نشيد الحياة
رواية
يحيى يخلف





الهيئـــة العامة
لقصور الثقافة

آفاق عربية

نشيد الحياة

رواية

يحيى يخلف



الهيئة العامة لقصور الثقافة

آفاق عربية (62)

(شهرية)

فبراير / 2003

نشيد الحياة

يحيى يخلف

الإشراف الفنى العام

غريب ندا

الطبعة الأولى

رقم الإيداع / ٣٥٩٤ / ٢٠٠٣

I.S.B.N: 977 - 305 - 376 - 8

المرسلات باسم مدير التحرير :
على العنوان التالى :
١٦ (أ) ش أمين سامى - قصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

مقدمة

المجد للمناضلين البسطاء!

بقلم : حسين عيد

حطّ الكاتب الفلسطيني يحيى يخلف رحاله - في رابع رواياته « نشيد الحياة » - على الأرض التي طالما بحث عنها بدأب وإصرار وشغف ، « أرض الدامور » وكمن عثر على ضالته المنشودة ، صارت ألوانه نقية كقوس قزح ، ساطعة كضوء شمس الصيف ، وفاحت من أجواء أرضه « رائحة الموز وحشائش البحر » ، وانطلقت شخصياته العملاقة - خلال واقعها اليومي المعيش - بمشاعرها الإنسانية الفياضة ، وإيمانها العميق بالثورة ، فدانت لهم الحياة ، ومنحتهم سر القوة ، حين اختاروا النضال المسلح ضد العدو ، فصارت حياتهم نضالاً ، وصار نضالهم حياة !

بدأ يحيى يخلف بالقصة القصيرة وله فيها مجموعتان ، ثم كانت أولى رواياته « نجران تحت الصفر » عن فقراء اليمن والقهر والعنف والثورة بتياراتها المختلفة ، ثم ثناها برواية « تلك المرأة

الوردة » عن تجربة حب مستعادة لصبى يافع وامرأة ناضجة فى واقع أحد المخيمات الفلسطينية الملئ بالقهر والمعاناة ، وكانت روايته الثالثة « تفاح المجانين » عن محاولة طفل صغير البحث عن سر القوة ليكتشفه فى الخال الفدائى العائد من السجن ، ليستقر به المقام – فى رواية « نشيد الحياة » – على أرض « الدامور » ، التى يتزاوج فيها الحلم بالواقع ، والثورة بالحياة اليومية ، لتصبح هى مدينته الفاضلة ، وكأنه يدعونا – كقراء – أن نشاركه كشفه ، وهو أن الحل الوحيد أمامنا للخلاص : هو أن نجعل واقعنا ثورة ، وأن نحيل الثورة إلى قضية حياة ، فهذا هو السبيل الوحيد للانتصار !

فما هى أهم ملامح رحلته الروائية أو ماهى علاقات الارتباط بين هذه الرواية ورواياته السابقة وماهى أهم ملامحها وكيف شكّل ملامح شخصياته ؟ وما هى أهم التقنيات الفنية التى استخدمها فيها ؟

ملامح رحلته الروائية :

إذا نظرنا إلى مجموع أعمال يحيى يخلف الروائية التى تشكل عالمه الروائى ، فإننا نجد بينها روافد ممتدة ، وعلاقات ارتباط ، وملامح تطور .. هذه محاولة لرصد هذه المعالم :

أولا : يعتمد يحيى يخلف فى كل أعماله الأدبية على التجربة المعيشة أساسا لعمله ، فحين ذهب إلى اليمن كمدرس متعاقد فى المدرسة المتوسطة (الإعدادية) لإعالة أسرته ، كشفت له نجران عن عالمها الخرافى ، الذى ينتمى إلى القرون الوسطى ببشره من تجار وسماسرة وقوات الإمام والمرتزقة والمطاوعة والغلمان والنساء المضطهدات . وحارة العبيد ورجال العسس (انظر : « شخصية ومؤلف » ملحق رواية نجران تحت الصفر بقلم يحيى يخلف) . . وهناك عايش الكاتب ثورة اليمن عن قرب ، وبحسّه المرهف كتب رواية « نجران تحت الصفر » منتميًا فيها إلى بشر قاع المجتمع ، ومعبّرا – فى الوقت ذاته – عن صدق أحاسيسهم ، وتلقائية تكاتفهم فى لحظات الشقاء !

ورغم أن رواية « نجران تحت الصفر » كتبها يحيى يخلف منفعلاً بالأحداث التى رآها ، وهو (خارج) التجربة ، إلاّ أنها كانت المقدمة الطبيعية (للدخول) إلى عالمه الفلسطينى الخاص ، فكتب رواية « تلك المرأة الوردة » (ربما عن تجربة خاصة » من ذات منطلق واقع أفراد مجتمعه البسطاء الذين يعيشون فى أحد المخيمات

حيث أكواخ التنك (أيضًا) ويخضعون لأنماط مختلفة من القهر والاستغلال !

ثم تعمق أكثر فى واقع اللاجئين الفلسطينين ، وانتظارهم للإعانات وتحايلهم بشتى الطرق للحصول عليها فكتب رواية « تفاح المجانين » .

وأخيرًا من خلال حياته فى (الدامور) ، أيقن أنه عثر فى هذا المكان على نموذج للمجتمع الفسطينى المنشود ، حيث يزاوج أفراده بين الجانبين المدنى والثورى (رواية « نشيد الحياة ») !

ثانيا : ارتفعت فى رواياته الثلاث الأولى نغمات القهر والمعاناة بمستويات مختلفة (اجتماعية وسياسية) خلال رحلة أبطاله الصعبة بحثًا عن الطريق ، ثم خفتت هذه النغمة حين وجدوا طريقهم فى المواجهة المسلحة (المدنية) فى رواية « نشيد الحياة » .

وانعكس ذلك على لغة القص ، فكانت مريرة ، مقهورة ، كسيرة ، يائسة حينًا ، وحادة ، هائجة ، غاضبة ، عنيفة حينًا آخر (فى الروايات الثلاث الأولى) ثم طاوعت اللغة يحيى يخلف (حين وجد انتماءه)

ففتحت له كنوزها الخفية ، ليغترف منها ما شاء له الهوى ، فسطعت كلماته بسيطة ، قوية ، نقية ، صادقة ، معبّرة ، وتدفقت بسهولة ويسر ، جياشة بالغضب عند الضرورة ، واقتربت فى مقاطع كثيرة منها إلى أعذب الشعر تمجيدًا لهؤلاء البسطاء وإعلاءً لشأنهم ، كما يلاحظ القارئ أن الفعل المضارع هو الفعل الغالب الاستخدام فى الرواية تأكيدًا لديمومة الثورة ، واستمرارًا لنضالها فى الحاضر والمستقبل !

ثالثا : تعتبر تيمة استقطاب أحد عناصر الثورة إحدى التيمات الأثيرة لدى الكاتب ، سواء أكان هذا بواسطة المعسكر المضاد (رواية « نجران تحت الصفر ») حين شغلت حيزًا كبيرًا من الرواية ، أو بواسطة استئناس شخصية الفدائى ، ومحاولة تفريغها من هدفها الأساسى بواسطة استنزافه فى الحياة المدنية ، لتوفير متطلبات الحياة والمعيشة أو لممارسة الجنس ، ويستمر الاستنزاف (كما حدث مع الخال الفدائى) حين إنحدر إلى تمثيل شخصية ما من أجل الحصول على معاشها من اللجنة المختصة (رواية « تفاح المجانين ») فشغلت هذه التيمة حيزًا أقل منها ،

أو بواسطة قوى خاصة داخل معسكر الثورة ذاته ، حين حاول الانتهازى سعيد راجى أن يجعل من أحد عناصر المقاومة الشابة جاسوسًا له ، مقابل توفير مايحتاجه من مال لزواجه (رواية نشيد الحياة) فشغلت هذه التيمة رافدًا فرعيًا منها .

رابعا : تمثل قضية البحث عن سرّ القوّة تيمة أخرى فى عالم يحيى يخلف الروائى . . ظهر ذلك كأحد المبررات لتعلق صبى يافع بامرأة ناضجة ، ثائرة . . كان يرى فيها نموذجًا قويًا فانجذب إليه (رواية « تلك المرأة الوردة ») . . أو حين يبحث طفل صغير عن مصدر القوة ، فيقوم بمحاولات شتى ، ليهتدى فى النهاية إلى أن الخال الفدائى هو النموذج المطلوب فينجذب إليه بعنف (رواية « تفاح المجانين ») وأخيرًا ، حيث المستقر ، حين يهتدى الكاتب نفسه إلى السر ، فيجسّده فى هؤلاء البشر البسطاء الذين يقومون بواجبهم الثورى مجاورًا لطقوس حياتهم اليومية (رواية « نشيد الحياة ») !

محاور الرواية :

يقوم بنيان الرواية على ثلاثة محاور رئيسة ، رسم عليها

لوحة واسعة - من الداخل - لوقائع الحياة اليومية لمجتمع فلسطيني صغير فى (الدامور) ، حيث يزاوج أبطاله بين واقعهم اليومى المعيش ويربضون - بحذر - فى مواجهة العدو ، أفراده نماذج بشرية حية ، لها نقاط قوتها ونقاط ضعفها ، وفى المقابل يقدم الكاتب جزءًا من الوجه الآخر للثورة بنماذجه المنتقاة .

المزاوجة بين الجانبين المدنى والثورى :

جميع الشخصيات الرئيسة فى الرواية لهم مهن يمارسونها فى حياتهم المدنية ، لكنهم سرعان ما يتركون أعمالهم ، لتلبية نداء الواجب إذا ما دقت ساعة المواجهة ، وذلك باستثناء بعض النماذج التى تستدعى دواعى اليقظة تفرغهم للجانب النضالى كالقائد حمزة شط العرب .

الأبطال - البشر :

هؤلاء الأبطال من البشر البسطاء ، يكاد القارئ يحسهم فى لحظات قوتهم وضعفهم ، والأمثلة فى الرواية تفوق الحصر . . فمثلاً (أبو العسل) العجوز الذى كان يسعى بعربته التى يجرها حصان ، فدهس إحدى دجاجات « زليخة » دون قصد ، يصوّره الكاتب بأنه » ارتبك ثم ارتبك ، الشارع خال ، والهواء بارد ،

وجناح الدجاجة المحتضرة يرتجف . هاجمته الوساوس وهاجمه إحساس بسوء الطالع ، وبعد تردد عاود المسير » .

إنها لحظة ضعف هرب فيها العجوز من مواجهة الآثار المترتبة على هذا الحادث ، لكن ضميره يؤنبه فيعترف لحمزة ، ويتحركان سويًا إلى زليخة التى ترفض بإباء قبول أى تعويض .

وأيضًا فى موجهة الإعصار تفيض مشاعر الشايب ، زليخة ، والسنيورة ، بين خوف ورهبة ، وقلق وأرق ، وهلوسات وأحلام فى وحدتهم المضنية . .

وفى مشهد من أرق المشاهد الإنسانية فى الرواية ، حين لجأت السنيورة إلى الفرن متعللة بشراء الخبز ، لكنها فى حقيقة الأمر كانت تهرب من وحدتها ، بحثًا عن الدفء البشرى وسط الآخرين . . عندها رفض (البشكار) البيع لها لكن الزهيرى (صاحب المخبز) تناول رغيفًا نيئًا وأدخله بيت النار ، وعندما نضج أعطاه للسنيورة التى كانت ترتجف ، فقطعت منه كسرة ورمتها للكلب ، وداعبته للحظة ، ثم أكلت لقمة . . عندئذ « ابتسم البشكار بحنان ، نظر البشكار إلى (أبو العسل) . نظر أبو العسل إلى السنيورة . نظرت السنيورة إلى الكلب رفع الكلب رأسه ونظر إلى الزهيرى .

كان الدفء خيطًا ، وكانوا حبات مسبحة » !

نماذج الوجه الآخر للثورة :

قدمت الرواية ثلاثة نماذج . . أولها نموذج (غير المنتمى للثورة) وهو الميت الذى دفنوه فى بداية الرواية ، وحكت زوجته حكايته فيما بعد ، فأوضحت أنهم بعد خروجهم من تل الزعتر فقد الرجل مورد رزقه ، حيث كان يشتغل فى أحد المصانع (يصقل الحجارة وينقشها ويجعلها صالحة للبناء) . وبعد تل الزعتر جاء إلى الدامور ، ثم انتقلوا إلى عين الحلوة وهناك عاشوا على الجفاف ، لأنه كان سخيًا ، ثم عمل فى أعمال عدة ، حتى أصابه الزهق والملل واليأس فبدأ يشرب ، ثم طفش دون أن يودعهم أو يأخذ بطاقته . . وكأن الكاتب شاء أن يؤكد - من خلال هذا النموذج - أن الانتماء إلى الكفاف المسلح هو الذى يعطى الحياة معناها . . وتلح الرواية على هذا المنحى عندما تنتهى على طفل صغير (هو ابن هذا اللامنتمى) وسط رجال المقاومة ، بعد أن استوعب درس أمه ، وهو يرمى سنه التى سقطت فى عين الشمس ، وكأنه يستعجل الزمن ، حتى يغدو رجلًا ، يندرج فى زمرة رجال المقاومة ويمضى على طريق التحديات والنضال !

ثانى هذه النماذج التى قدمتها الرواية فى هذا السياق هو نموذج الانتهازى (سعيد راجى) الذى يتسلق على جلد الثورة ، ويسرق ، وبصلاته المريبة يفلت من العقاب ، حتى يفاجأ به القارئ رئيسًا لإحدى وحدات أمن الثورة فى بيروت . . وكأنّ الكاتب شاء أن يحذر من أمثال هذه النماذج ، لما تخلفه فى نفوس المناضلين البسطاء من قهر وإحباط وخيبة . .

كما قدمت الرواية أيضًا نموذج المتعاون مع العدو سرًّا ، والذى يخفى وجهه وهو يشاهد المعتقلين ، ليشير على من ينتمون إلى المقاومة منهم ، لأنه يعيش معهم ويعرفهم ، لكنهم لا يعرفون هذا الجانب الخفى . وهذا ما فعلوه مع الزهيرى بعد اعتقاله !

شخصيات الرواية :

رسم يحيى يخلف شخصياته الروائية على أربعة مستويات : الأول شخصيات نموذجية, كشخصية القائد حمزة شط العرب واثنان من رجال المقاومة هما الشايب وأحمد الشرقاوى . . كما قدم فى مستوى آخر شخصيات متوازية ، حيث تتوازى شخصية زليخة مع السنيورة ، والزهيرى مع أبو العسل . وهناك مستوى ثالث للشخصيات المساعدة مثل حسن الأمجد وسعيد راجى . أما المستوى الرابع فيجمع عددًا آخر من الشخصيات التى تناثرت

بين صفحات الرواية ، ولم يحظ بعض منها سوى بذكر الاسم كبعض شباب المقاومة (مثل جهاد ، خالد كامل ، أبو أيمن ، ورضوان) ، أو نال بعضها الآخر ومضة تعريف قصيرة أو ومضات قليلة ، لم تكن كافية لبعث الحياة فيها كجيفارا العراقى أو البرجاوى . .

وسأتناول الشخصيات النموذجية والمتوازية ببعض التفصيل . .

حمزة شط العرب :

وضع فيه الكاتب سمات القائد الشعبى (المنوذجى) فهو المحبوب ، الطيب ابن البلد الذى اكتسب لقبه بسبب بقائه الدائم فى كمين المراقبة على الشاطئ منذ سنوات . وهو حين يمشى « يمشى معه الخط السياسى ، يمشى معه الحذر والانتباه واليقظة ، وهو يحرس الشاطئ ويراقب الأمواج » .

والصفات السابقة يغلب عليها الطابع العام . أما صفاته الخاصة فقد اقتصرت على أنه ترك دراسة الأرصاد الجوية والتحق باكرًا بالمقاومة ، لذلك ظل يتنبأ بحالة الطقس وتقلبات الجو ، ويستقرئ المناخ بالعين المجردة ، كما أنه « يمشى رصينًا » يتدلى المسدس من حزامه العريض ، ويبرز كرشه

الصغير ، وقد نفر شعر ذقنه وشعر شاربه الكث » . وهو إنسان حساس وإن كان يتظاهر بقسوة مصطنعة ، وهو يؤمن بأن رجال الثورة يجب أن يكونوا كأبناء الشعب فأمام الفرن - رغم أن الزهيرى صاحب الفرن يعطيهم الأولوية للحصول على الخبز - يأمر حمزة رجله « أحمد الشرقاوى » أن يقف فى الطابور ، ويبرر له أمره بقوله « لسنا أفضل من هؤلاء الناس يا أحمد وعلينا أن نكون جزءًا منهم » ولم يناقشه أحمد لأنه كان يعرف أنه يعنى ما يقول ، لذلك وثق الناس به وكانوا ينتظرون رأيه .

إنه نموذج القائد - البطل - الأسطورة الذى « يتصنت لأصوات القوى الخفية فى أعماقه ، لصليل السيوف وسنابك الخيل » ، و « يفكر فى صحراء الماضى ، يفكر بأرض الآتى الخضراء .. يفكر بالطيف والكون الزمنى ونداء الطبيعة العالى » !

إنه النموذج - الحلم - الأمل للقائد الثورى الذى يتغنى به الكاتب ، والذى يرتبط بالتراث العام لشعب ، حين وهب حياته للقضية العامة ، لذلك تاهت ملامح حياته الخاصة ، أو كأنها اندمجت فى حياته العامة فى وحدة واحدة ، فلم تظهر على مدار الرواية إلاّ فى شذرات باهتة !

الشايب :

عجوز من رجال المقاومة يعمل بمكتب الميليشيا . كان يحب زوجته فاطمة المرأة الطاهرة ، نظيفة القلب والروح ، والتى تفيض البركة من كفيّها ، ويلهج لسانها بالشكر حتى فى أيام الشدة ، وكانت تحب الناس ، لكنها لم تكن تنجب فكان يخفف عنها بقوله « إن الخصب ليس بالحمل والولادة ، الخصب فى شخصيتها الكريمة وأخلاقها النبيلة » . ثم ماتت فجأة فأصبح وحيدًا ، وفقد القدرة على النوم ، ثم أصبحت الثورة أسرته منذ أن جاء إلى الدامور من تل الزعتر ، فصار الشباب أهله وعشيرته . . وهو شخصية حية مرسومة بعناية ، خاصة مع كلبه العجوز الذى أصبح خير أنيس له !

أحمد الشرقاوى :

أحد شباب المقاومة تحت رئاسة حمزة . يرغب فى الزواج من فتاة من بيروت لكن إمكاناته لا تساعده فيتحدث مع سعيد راجى (الذى يعتبره حمزة من البعوض الذى يقف على جلد الثورة لامتصاص خيراتها) لمساعدته فى الحصول على مساعدة مالية من المالية المركزية . وفى بيروت تطلب منه خطيبته نبيلة انتظارها حتى تنهى عملها ، فيتسكع فى الشوارع ، حتى يقتاده

رجال (أمن الثورة) فى سيارتهم إلى مبنى يقابل فيه سعيد راجى (وهى مصادفة غير مبررة) ، الذى يخبره أن المساعدة المالية ستكون جاهزة بعد ربع ساعة ، لكن أحمد يتخوف من إقباله على مساعدته خاصة لما فعله مع (أبو العسل) واعتدائه الوحشى عليه نتيجة تبليغه السلطات أنه شاهد سيارة سعيد راجى أمام منزل الخواجا الذى سرق ؛ لذلك رفض أحمد هذه المساعدة ، بكل ما يترتب عليها من تأخير أو إلغاء لمشروع زواجه ، وعاد للدامور ، وحكى للسنيورة همومه ، وأنه قرّر أن يحبها !

شخصية حية ، تتفجر بالشباب ، منطقية فى تصرفاتها والتزامها الثورى .

شخصيات متوازية :

زليخة - السنيورة :

شخصيتان متوازيتان تنتظران مالا يأتى .. تحلم زليخة بعودة زوجها أبو كامل ، الذى رحل ذات يوم ولم يعد ، لذا أبلغت أطفال الحارة أن يراقبوا لها الشارع ، وأن من سيأتيها بالبشارة فسوف تعطيه الحلاوة . وصار الأولاد شبانًا وهى مازالت تنتظر .. تمامًا مثل السنيورة التى تنتظر حبيبها سائق

إحدى السيارات على خط بيروت صيدا ، وذلك عندما ما قابلته وهى فى الخامسة عشرة من عمرها فأعاد الاعتبار إلى قلبها عندما ركبت معه من الدامور إلى بيروت ودعاها للعشاء وسهرت معه تلك الليلة حتى بزوغ الفجر ، حين أعادها بعد أن تواعدا على أن يلتقيا كل مساء أحد .. هكذا بدأ انتظارها الذى لا ينتهى كل مساء أحد ، رغم مضى سنوات عديدة ، لم يأت أبدًا خلالها ، فكانت تختلق دائما له الأعذار !

هاتان شخصيتان متوازيتان ، كل منهما أسيرة ذكرى رجل أحبته فى ماضيها ، فأخلصت له ، وظلت على وفائها النادر تنتظر مالا يأتى !

الزهيرى - أبو العسل :

شخصيتان متوازيتان أيضًا ، دفع كل منهما ثمن الولاء للثورة بكبرياء وإيمان . الزهيرى متزوج وله أسرة ويعمل بمخبزه . طُلب منه أن يذهب مع سيارة الذخيرة بعد تفريغها إلى بيروت لاستلام أكياس الطحين ، حتى يؤمن الثورة ويضمن استمرار الخبز فى زمن الحرب . وفى طريق العودة وقع فى كمين للعدو الإسرائيلى ، فقبض عليه وعذبوه ليعترف على المنظمة التى ينتمى إليها ، ويعترف بمواقع رجالها ، لكنه ظلّ صامدًا وانتهى

به الأمر إلى الموت عاريًا وسط البرد . أما أبو العسل الذى أبلغ عن سرقة سعيد راجى لبيت الخواجا ، خلال رحلة بحثه عن حصانه الذى فُقِدَ فى العاصفة ، فكانت النتيجة أن برئت ساحة سعيد راجى ظلمًا وزورًا ، بعد أن تم تزوير شهادة بعض أصدقاء سعيد بأنه كان معهم ، وأن سيارته كانت متواقفة بكراج الاعتماد للتصليح . وفى ذات الليلة هاجم ثلاثة ملثمين أبو العسل وضربوه بكعوب البنادق ، لينتهى به الأمر فى غرفة العناية المركزة لكسر فى الجمجمة وارتجاج فى المخ !

كلاهما من أبناء الثورة ، مضيا - كل على حدة - فى رحلة ما ، فسقط أحدهما « الزهيرى » بيد الأعداء (الخارجيين) ، دافعًا حياته ثمنًا لصموده .. وقال الآخر (أبو العسل) كلمة الحق على أحد أعداء الثورة (الخارجيين) ، فكاد أن يدفع حياته ثمنًا لكلمته ! .

تعريف بالمؤلف :

وُلد يحيى يخلف فى قرية « سمخ » قرب بحيرة طبرية بفلسطين عام 1944 ، ولجأ مع أهله إلى الأردن جراء النكبة فى سنة 1848 . ترعرع فى مدينة أربد الواقعة فى الجزء الجنوبى من سهل حوران شهور . درس بها حتى تخرّج من دار المعلمين بمدينة رام الله عام 1967 . وبعد الاحتلال التحق بجامعة بيروت العربية ، وتخرج فيها سنة 1971 حائزًا على الليسانس فى الأدب العربى .

ويعتبر يحيى يخلف أبرز ممثل للواقعية والالتزام فى الأدب الفلسطينى الحديث . له من الروايات : « نجران تحت الصفر » (1976) ، « تلك المرأة الوردة » (1980) ، « تفاح المجانين » (1981) ، « نشيد الحياة » (1985) ، « بحيرة وراء الريح » (1991) ، « نهر يستحم فى البحيرة » (1997) ، و « يوميات الاجتياح والصمود » (2002) . كما أن له مجموعتى قصص قصيرة ، هما : المهرة « (1974) ، و « نورما ورجل الثلج » (1977) فازت روايته « بحيرة وراء الريح » بجائزة فلسطين للفنون والآداب سنة 2002 .

- 1 -

إنها الشمس . .

ساطعة وكامنة. حارة أو دافئة. طيبة وكسولة، تطل بعد غياب طويل.

المسنّون يقرفصون أمام الأبواب، يتشمّسون، يحكون عن الماضي، وينتظرون المعجزة التي ستأتي بها الثورة!!

حمزة شط البحر لم يعد بعد. ما زال يحرس الشاطىء ويراقب الأمواج، في حين تتسلّل أشعة الشمس عبر النوافذ إلى الأبدان. إلى المسام والتجاعيد. تسطع فوق قرعات الأطفال الذين يلعبون فوق تل التراب الأحمر.

تنصبّ حزمة حارة على المواقع المتقدّمة، فيلفح الهواء الساخن الوجوه وحدقات العيون.

تفوح رائحة الأرض. تفوح رائحة الأجساد البشرية. . رائحة الجلد والعرق والجوارب وأحذية المطّاط، وتختلط برائحة السماد وأشجار الموز والحشائش ورائحة البحر. هذا نهار هارب من أيام الصيف.

قال الشايب أو الرجل الذي لا ينام، وأضاف قائلاً:

ـ وعمّا قريب يأتي سعد ذابح الذي تموت فيه الكلاب من شدّة البرد

فلا يبقى كلب نابح. وبعده يأتي سعد السعود فيدفأ كل مبرود، ثم يأتي سعد الخبايا الذي تتفتّل فيه الصبايا.

ولا يتوقّف الرجل الذي لا ينام عن الحديث، بينما في ظل الملجأ تجلس امرأة إلى جانب زوجها يستمعان إلى إذاعة الثورة وبجانبهما تستند بندقية على الحائط.

وعلى طول الجدار المقابل شعار ضد كامب ديفيد.

وتمرّ سيارة عسكرية مموّهة عبر الشارع مثيرة بعض الغبار. تنظر قطة سوداء إلى اللحم المعلّق بالكلاليب.

تعبر الطريق دجاجات زليخة الثلاث..

واحدة عارية من الريش

الثانية مقصوصة الذيل.

الثالثة بيضاء وجميلة تمشي كما لو كانت بطّة.

في الظل أمام مكتب المليشيا، يجلس الرجال على الكراسي ويتحاورون..

يتحاورون ويشربون الشاي، وينظرون إلى طائرة استطلاع ترسم قوساً أبيض فوق الأفق..

أما حمزة. حمزة شط البحر، حمزة المحبوب، الطيِّب، وابن البلد، والذي اكتسب هذا اللقب بسبب بقائه الدائم في كمين المراقبة على الشاطىء منذ سنوات، فإنه ظلَّ يحدِّق بالمدى الأزرق، ويرفع رأسه بين حين وآخر. يغمض عينيه نصف إغماضة، ويحدِّق بهذا السطوع المفاجىء.

□ □ □

تسطع الشمس وتتوهّج كأنه يوم من أيام تموز يتألّق فيه السراب ويتميّز غيظاً.

عند مجمع الحنفيات يسيل الماء. ويشكّل مجرى ينحدر تجاه المشاتل المغطاة بالبلاستيك. تقف النساء والصبايا ينتظرن الدور ليملأن.

كانت صفية ذات الشعر الأشقر والسن الذهبية تلبس بنطلون (البيجامة) تحت فستانها، تضع شعار العاصفة على صدرها، وتتحدّث مع أم محمد الطيراوية التي تخصّصت في نزع الشعر بالطريقة البلدية، وترتيب الحواجب بالعلكة، وتنتظر دورها.. وأثناء ذلك تنظر بعين إلى العابرين على الطريق الترابية المختصرة، وبعين أخرى إلى الشارع (الأوتوستراد) العريض الذي يحاذي البحر، وتكاد أشجار الموز تلامسه. تحدّق طويلاً بالسيارات الذاهبة والآيبة.. الذاهبة إلى صيدا وصور، والعائدة إلى بيروت.. الدامور ممر، محطة وقود أو استراحة لأكل مناقيش الزعتر، واللحم بعجين.. والبحر أزرق. والرياح خفيفة، وثمة قارب شراعي لا يقترب من الشاطىء ولا يوغل في العمق.

ها هي الحياة تدبّ من جديد بعد الغارة الجويّة التي حدثت منذ يومين واستهدفت التلال ومنطقة الجيّة. والآن لا صوت إلّا صوت الطيور.. طيور البحر التي تحلّق فوق حقول البندورة المغطاة بأكياس النايلون.

هجرت السيارات الطريق القديم الذي يشقّ البلدة، إلى الطريق الجديد العريض الذي يحاذي البحر وسكّة الحديد... وعلى الجانبين

يقف باعة الخس والفجل والأواني الفخارية.. يقف الأطفال يبيعون الزهور وقلائد الياسمين.

من السمّاعة تعلن سيارة الإعلام الجماهيري عن وجود جثة مجهولة الهوية وتطالب الناس بالحضور للتعرّف عليها.

والزهيري يقف أمام بيت النار شبه عار يتأمّل الأرغفة وهي تحمرّ وتنتفخ ثم يغني موّالاً لجفرا وللبساتين دون أن يبعد عينيه عن اللهب الأزرق الكامن في جوف الاشتعال. الزهيري فرّان المخيم وزجّاله وشاعره..

وتمرق من أمام الفرن (السنيورة) بسطلها الفارغ وهي تلبس قميصاً رجالياً، وتشدّ وسطها بحزام عريض، فيندفع صدرها. على عينيها ما تزال آثار الكحل، وعلى وجهها مساحيق ليلة مضت.

تقف عند مجمع الحنفيات تنتظر دورها بينما خيوط الماء خفيفة وشحيحة. تقلب السطل وتجلس عليه، وتضع رجلاً فوق أخرى ولا يبقى إلا أن تشعل سيجارة. تحدّق النسوة بها بحسد أو غيظ.. وتدقّق امرأة تسكن الحارة الفوقا بوجهها للتأكّد إذا كان احمرار خدّيها من الصحة والعافية أو أنه من المساحيق. يحطّ بائع الترمس بضاعته ليبيع أو يبصبص، وفي انتظار دورهن تحكي النساء عن الثورات والحرب والزواج والطلاق والحبل والولادة.

تظلّ السنيورة تمضغ العلكة، ويظلّ بائع الترمس ينظر إليها نظرة بغل. وتمرق (زليخة) بثوبها الأسود. تحمل على رأسها سطل لبن تحكي مع نفسها كالعادة. تقلع قدميها من الأرض اقتلاعاً. تمشي دون أن تحفل بأحد.

يفلت طفل يده من أمه، ويخرج حمامته ويبوِّل بلا حرج.

غابت الشمس.. غابت فهبَّت نسمات باردة أعلنت عن رحيل يوم دافىء. حدّقت العيون بتلك السحب السريعة التي تعبر السماء، وظلّت سمّاعة الإعلام الجماهيري تواصل نداءاتها.

غير بعيد تقف سيارة الإسعاف وعلى مقدمتها يجلس سائقها ينتظر أحداً ما ليوقع له كشف الاستلام. تتمدّد الجثة المجهولة في تابوت خشبي. جثة رجل. جبينه عريض. يطبق عينيه في وجه شاحب أو صامت.

سقطت قذيفة في مكان ما وراء الوديان. خلت الشوارع. توقّف المنادي ثم دخل مكتبه وأغفى مبكراً.. ظلّ السائق وحيداً.

نفدت سجائره فأسند ظهره إلى حائط المكتب. مذاق الإسمنت رطب ومن بعيد تأتي رائحة الصراخ أو شدّة اصطكاك الأسنان.

يأوي الناس إلى بيوتهم. الذين يسبّحون ويطلبون الرحمة، والذين من حلاوة الروح يريدون أن يموتوا وهم يأكلون. نفدت السجائر ولم يعد هناك من يقدِّم الشاي. يغمض السائق عينيه. يغفو أو يهلع. يتشوَّق أو يسأم.

والجثة ما تزال شاخصة وشاحبة ووحيدة.

مذاق الإسمنت بارد. ثم حدَّث نفسه: «إنه ميت على كل حال، لذلك فإن البرودة التي تسري في العظام لن توجعه»

كان السائق ينقسم إلى قسمين. كان بحاجة إلى سيجارة وكوب شاي ساخن وكان بحاجة إلى رغيف خبز.

الليل ليل.. من يوقّع الكشف. مجهول الإقامة.. من يوقع الكشف؟ هجم صمت مخيف.. كيف يصمت الشلاّل العظيم.. كيف تتحرّك تلال الخوف وتمشي مثل الكثبان؟؟

- 2 -

عاد حمزة. . .

حمزة شط البحر.

عاد يحمل بندقيته على كتفه، ويحمل رائحة الليمون والفضاء.

عاد في الفجر الصادق مع عودة الصيّادين، ومع استيقاظ الشغيلة وعمال الزراعة. .

عاد حمزة، الذي حرس الشاطىء ويحرس حدائق فكرته ويتقن إصابة الهدف بمدفعه من عيار ٨٥

يحمل البندقية على كتفه مثلما يحمل الفلّاحون فؤوسهم. .

يهبط المنحدر خفيفاً بشوشاً، حيوياً. .

يصعد المرتفع، يصعد باتجاه السماء الرمادية، باتجاه الرياح الغربية الخفيفة.

حمزة شط البحر ترك دراسة الأرصاد الجوية والتحق باكراً.

لذلك ظلّ يتنبّأ بحالة الطقس وتقلبات الجو، ويستقرىء المناخ بالعين المجرّدة. أحياناً يقرأون حالة الطقس من التماعة عينيه أو خطوط وجهه. .

يمشي حمزة. يمشي معه الخط السياسي. يمشي معه الحذر والانتباه واليقظة.

وعندما عاد حمزة شط البحر في ذلك الفجر الصادق عاد المنادي عبر سمّاعة الإعلام الجماهيري ينادي مجدَّداً ويعلن عن وجود جثة مجهولة الهوية.

توقَّف حمزة وأصغى جيداً.. توقَّف وأرهف السمع.

ثم اقترب من المبنى. كان السائق يغفو وراء عجلة القيادة في سيارة الإسعاف والمنادي الذي يعرف واجبه جيِّداً، يواصل النداء أو الصراخ..

ـ كفّ عن ذلك.

قال حمزة. وفتح عينيه في تلك اللحظة.

ـ منذ متى هذه الجثة هنا؟.

أجاب المنادي: منذ يوم أمس.

ـ إكرام الميت إنما يكون بدفنه.

وإذ ذاك تذكُّر الشايب أو الرجل الذي لا ينام، فتوجّه إلى مكتب الميليشيا.

□ □ □

كانوا يأكلون..

طرح حمزة سلامه المقتضب.

ردّ أكبرهم سناً.. ردَّ الرجل الذي لا ينام أو الشايب كما يسمّونه. أما الآخرون، فقد تمتموا أو هزّوا رؤوسهم، وكان الدوشكا خلفهم مغطّى بالشادر.

أكل ساخن هذا الصباح.

وخبز طازج كأنه خارج لتوّه من فرن الزهيري، يضاف إلى ذلك رأس بصل، وشيء من الفلفل والملح.

جلس حمزة. صديقهم، ولكنه ابن بلد ويعرف أن لا أحد يجعلك تقوم عن الزاد إلا عدوّك.

كانوا يأكلون من صحن واحد. ليس صحناً وإنما صينية كبيرة.

كان هناك دفء. مرقة. خبز أسمر. فلفل حار. جعب متناثرة. أجندة رصاص. أحذية أسياخ تنظيف. زيت سلاح. ومن بعيد كانت تعبر الأفق غيوم سوداء خفيفة.. الغيوم أطعمت أولادها وجاءت.

تساءل الفتى غازي: هل ستمطر هذا اليوم يا ترى؟

نظروا جميعاً إلى حمزة.. حمزة الذي يقرأ حالة الطقس بالعين المجرّدة.

كادوا يقرأون في وجهه نذير المطر..

تجاهل سؤالهم، وخاطب الشايب:

ـ بعد أن تنهي طعامك أيها الشايب هناك مهمة إنسانية.. هناك جثة رجل مجهول أصيب برصاص قنص كما يبدو، وأنت فاعل خير.. إكرام الميت أن تدفنه وتقيم له جنازة لائقة..

وفهم الشايب. الشايب الذي رأى كوارث بعدد شعر رأسه.

فهزّ رأسه وبدأ يمسح يديه.

الجثة ما زالت في تابوتها.

جثة رجل في الخامسة والأربعين.

شعره الأبيض يفوق عدد شعره الأسود.

وجهه حليق.

ربما كان يقبل على الحياة بقوة.

جسده نحيف.. ربما كان يعاني من أنيميا أو سوء تغذية. شاربه رفيع مشذّب.

كأنه ظل يستعد للذهاب إلى عرس أو زيارة.

رقبته طويلة.

تفاحة آدم وسط الرقبة بارزة. عظام الصدر بارزة.

الرائحة بدأت تفوح. رائحة الموت والرطوبة.

رائحة الرحيل والغياب والغربة.

كان الوجه ينام ولا يرتسم عليه الألم.

كأنه ينام تحت موجة تغمره ثم تنحسر فتغسله وتغسله ولا تتوقف عن غسله. حملوا الجسد وأدخلوه الغرفة.

وأحضروا طاولة الغسيل. كانت طاولة ثقيلة لا ينام فوقها إلا الموتى الغرباء، طاولة عشّش على أطرافها العنكبوت، فمنذ فترة طويلة لم تستعمل.

قال الشايب: هات الماء الساخن.

أحضر له الفتى غازي الماء.

أما السائق الذي كان يقف معه، فقد كانت تفرّ وتهرب بعيداً تلك الشجاعة التي واتته طوال رحلته الشاقة.

كان يتمنى لو أن بإمكانه أن يعدو ويهرب من جلده.

أما حمزة فقد ظلّ ينتظر في الخارج. يدخّن أو يقلق.

رفع الشايب ذيل قنبازه وأدخله تحت الحزام.

خلع الحطّة والعقال وأبقى الطاقية.

شمّر عن ذراعيه وبدأ يدعك الجسد النحيل بالليفة.. بالصابون. ويغسله بالماء الساخن.

كان الجسد النائم يستسلم. يغفو. تصبح له رائحة جديدة.

كان السائق يتمنّى أن يتوقّف القصف البعيد هذه الليلة حتى يعود.

قال في نفسه: إذا كان لا بدّ من الموت، فليمت المرء بين أهله وذويه. ليجد من يضع زهوراً على قبره.

غسل الرأس. غسل الوجه. غسل الصدر. غسل البطن، غسل شعر العانة.

وبدأ يغسل القدمين عندما بدأ الرذاذ يتساقط في الخارج.

قال الشايب: يجب أن ندفنه قبل أن تمطر.

كان الفتى غازي يصبّ الماء ويتوجّس خيفة؛ كانت المرّة الأولى التي يشاهد فيها مثل هذا الأمر.

انتهى الغسل، وأخذ الشايب الذي يتصبّب من جبينه العرق يلفّ القماش الأبيض ويستر الجسد النحيل.

وإذ ذاك جاءت (زليخة). جاءت عبر الأزقّة ودخلت دون أن يلحظها أحد.

جاءت بثوبها الأسود الذي لا تنزعه عند النوم ولا تنزعه صيفاً أو شتاء. دخلت دون أن يحسّ بدبيب قدميها أحد.

قال لها الشايب عندما أصبحت أمامه:

ـ ما الذي جاء بك إلى هنا يا زليخة؟

لم تتكلّم. لم يكن الشايب ينتظر منها أن تتكلّم. مدَّت يدها إلى صدرها وأخرجت زجاجة عطر.

دمعت عينا الشايب، واقترب فقبّل رأسها. وقال:

ـ يا زليخة يا مباركة.. ليرحم الله هذا الرجل الغريب ببركتك.

تناول زجاجة العطر، فتحها، وأدارها على الجسد الملفوف بالأبيض.

بعد الصلاة، سارت الجنازة على مهل.

جاء عدد من الجيران وحملوا النعش.

سار في المقدمة الشايب والسائق وحمزة شط البحر.

ووراء النعش كانت زليخة تمشي، وانضمّ إلى الجنازة أبو العسل والزهيري والبشكار وعدد من الرجال.

ظلّ الرذاذ يتساقط، ويبلّل التراب، فيلتصق الطين بالأحذية..

يخترق بثغرات النعال، ويلامس أصابع الأقدام.

تحوّل الرذاذ إلى مطر خفيف. أخذ الرجال يغذّون السير.

مشت الجنازة بسرعة. هلّل أحدهم كي لا يطير النعش من فوق رؤوس حامليه.

اشتدَّ المطر. رشقت خيوطه الوجوه وبلّلت الثياب. لم يعد بمقدور السائق أن يفكّر أو يتألّم.

صارت الأرض رخوة.

وفجأة عبرت السيارة المسرعة..

عبرت سيارة (ألفاروميو) صفراء فوق بركة ماء وهي تسير بالسرعة القصوى. تطاير الماء والطين وبلَّل مقدِّمة الجنازة. .

لم تتوقَّف السيارة، وظلَّت مندفعة باتجاه الإسفلت. .

نفض الشايب الماء والطين عن ثيابه، فقال الفتى غازي:

ـ إنه سعيد من الأمن العسكري. . من جماعة أبو الزعيم.

ارتسم الغيظ على وجه حمزة. ارتسم غضب على الوجوه.

همس الشايب: للجنازة حرمتها. . علينا أن نواصل.

□ □ □

انتهت المراسيم. . .

والآن يمشي الشايب وحده.

يا لهذا الشايب الذي لا ييأس ولا تهزّه الكوارث!

يظلّ مستيقظاً طوال الليل والنهار. . فقد منذ زمن القدرة على النوم. اليقظة تريحه. اليقظة ترهقه.

عزّ الناس منذ مجزرة تل الزعتر. عزّ النعاس، وما شقشقت الشمس ولا أضاء قمر في القلب.

اليقظة. . اليقظة. هل تحلم بغفوة؟

يذهب حمزة ليأخذ قيلولة. . ليتمدَّد في سريره، ويغمض الجفنين. . يسترخي، ويعلو شخيره.

ووحدك أيها الشايب لا تنام. لا يعرف النعاس طريقه إلى العينين، ولا إلى الروح المعذَّبة المقيمة في جسدك القديم.

في النهار معهم وفي الليل وحدك.

في الليل لا يساهرك إلاّ السيكارة، وإلاّ هذا الكلب العجوز الذي يبسط ذراعيه ويغفو، والذي فقد منذ زمن القدرة على النباح.

وهـذا المخيّم طيّب القلب. حنـون.. أليف، ولا يعـرف الفـرح كثيراً. جدار الفرح تآكل وتداعى، مكتوب عليّ أن أعيش هذا العمر الطويل، وأن أشاهد حبّات القلب تنفرط واحدة بعد الأخرى.

تشعـل السيكارة من أختهـا. وعندمـا تسعـل يفتـح الكلب عينيـه قليلاً، ثم سرعان ما يعاود النوم.

بعـدهـا يـأتي سـائق سيـارة الإسعـاف. يجلس. يشعـــل سيكـارة ويتململ. لماذا تضطرب أيّها الفتى؟

أريد أن أسافر أيها الشايب.. أريد أن أعود.

تسافـر؟ أين.. وراء المخيّم. وراء الجبـال والـوديـان والشـوارع وصفير القطارات والسفن؟

وراء القلق والفشك والمستقبل الغامض؟

وداعاً أيها الشايب.. إني مسافر.

إلى أين، لا ضرورة للسؤال. اذهب أيها الفتى.

عــد إلى بيت دافىء، وزوجـة ودودة، ولقمـــة سـاخنـــة. يـركب سيارته، وينطلق..

تظلّ وحيداً. تلفّ نفسك بالبطانية. تنشد الدفء الذي قد يأتي.

- 3 -

صباح شتائي جديد. .

صباح بدأ نظيفاً عند الفجر. ثم اتسخ عند الضحى عندما قامت الطائرات الإسرائيلية بكسر حاجز الصوت فوق المخيّم تاركة الفزع والرعب على الوجوه، فأغلقت معظم المحال أبوابها.

ألصق الشايب أذنه على المذياع. . البطاريات ضعيفة، وصوت المذيع يغيب ويغيب ويصبح كل شيء مشوّشاً. ثم يطرق بابه. من القادم؟

يطل وجه امرأة تلبس الأسود.

يطل وجهها من وراء الأخبار الشحيحة، والقلق العظيم.

تدخل، ويدخل وراءها فتى واسع العينين. تجلس دون أن تنتظر. تجلس كأنما تحط حملاً ثقيلاً وتتنفّس.

يجلس الفتى ويظل الشايب قلقاً. لا يسأل ولا يستفسر.

بابه مفتوح، وقد اعتاد على زيارة أولئك الذين يقصدونه أو يطلبون نخوته.

ظلّ يلصق أذنه بالمذياع، وظلّ صوت المذيع يوغل في الرحيل، في حين أخذ وجه المرأة يقترب.

سقطت العبرات من العينين، والتصق الفتى بأمه.

ابتعد كل شيء فجأة. الأخبار والغارات والرياح الهوجاء.
فقال الشايب: ما الأمر أيتها السيدة؟
كفكفت دموعها، وقالت بعد صمت:
ـ زوجي أيها الوالد الطيِّب. . زوجي . .
ـ ما الأمر؟

تعلَّقت عينا الطفل بأمه، وغالب البكاء. فقالت المرأة:
ـ قالوا لي إنك غسَّلته بيديك ودفنته في المقبرة.

وعند ذلك. . أي حزن اعتصر القلب الذي شارف على السبعين؟
ـ إذن هو زوجك ذلك الغريب الذي جاءت به سيارة الإسعاف؟
هزّت رأسها. . وقالت:
ـ إنه أبو هذا الفتى. . أنظر ألا يشبهه؟

حدّق الشايب. . آه. . يا للذاكرة الضعيفة. لا أستطيع أن أدرك تماماً وجه الشبه، ولعلَّ العينين هما أثبت ما تعيه الذاكرة.
فقال: نعم أيتها السيدة. . إنهما يملكان عيوناً متشابهة. .

فأسرعت إلى يديه تريد تقبيلهما: ـ دلّني على قبره أيها الوالد.

سحب الشايب يديه، ثم مسح رأس الفتى. وقال بهدوء:
ـ حسناً سوف أدلّك، ولكن ما الذي حدث معه؟
تنهّدت المرأة، وقد حاولت أن تقول شيئاً ثم ما لبثت أن انفجرت بالنشيج.

أما الفتى فقد ظلَّ يغالب البكاء وينظر إلى أمه بذلك الألم الرزين. تركها الشايب تبكي. لعلَّ ذلك يريحها.

وقام فعمل القهوة وعاد، وكان نشيجها قد تحوَّل إلى بكاء خافت.

صبّ القهوة، وحلف عليها فشربت، وبعد ذلك قالت إنها جاءت من مخيم عين الحلوة على عجل، لأن هناك من ارسل يقول لها إنهم دفنوا جثته في الدامور.

خطر له أن يسألها كيف عرفت أن هذا الرجل المجهول هو زوجها.

لكنه أقلع عن السؤال، وفتح الباب قائلاً:

ـ هيّا نقوم بزيارته. ولكن لا تبكي، وارحمي قلب هذا الفتى الغض.

وبعد الزيارة أصبح للمرأة عينان متورمتان.

واصبح للفتى وجه مذعور.

أعدَّ الشايب لهما طعاماً خفيفاً، وحلف على المرأة أن تأكل وأن تطعم الفتى، فأكلت لقمة أو لقمتين.

إلّا أن الفتى رفض أن يأكل، وأدار وجهه إلى الحائط، وانخرط في البكاء.

يا لهذا الصباح الباهت الذي بدأ نظيفاً عند الفجر، ثم اتسخ مع الضحى.

اقترب الشايب من الطفل واحتضنه، لم يكن طفلاً.. كان فتى قويّ البنية.

ما الذي حدث معه؟

صمت الفتى. صمت أو نام. من الأفضل عدم إزعاجه.

أما المرأة المتشحة بالسواد، فقالت:

ـ بعد خروجنا من تل الزعتر فقد زوجي مورد رزقه.

«كان يشتغل في أحد المقالع، وبعد تل الزعتر جئنا إلى الدامور، ثم انتقلنا من الدامور إلى عين الحلوة.

«في عين الحلوة صرنا نعيش على الكفاف.. رجلي متعوِّد على الصرف..

«كان سخياً وكريماً. يصرف ما في جيبه ولا يدّخر.

«حاول أن يشتغل في عمله الأصلي فلم يتمكَّن، فاشتغل في أعمال عدة. اشتغل بائعاً متجوِّلاً، واشتغل في مخمر موز.. ثم أصابه الزهق والملل واليأس فبدأ يشرب.. وجاء يوم لم يجد في جيبه ليرة واحدة..

«لم يجد من يقرضه علبة سجائر فطفش دون أن يودّعني. طفش دون أن يلقي على طفله نظرة. طفش حتى دون أن يحمل بطاقته».

ثم صمتت. توقَّفت. كفَّت عن الكلام.

وكان يستطيع أن يكمل بنفسه بقية القصة.

ظل الفتى صامتاً وعابساً. فقالت المرأة:

ـ إنه متعلِّق بأبيه.. وكان المرحوم يدلِّله كثيراً.

أشعل الشايب سيكارة جديدة. وخطر له أن الكلام سيريحها، ويخفِّف عنها فسألها:

ـ وماذا كان يشتغل المرحوم في المقالع؟

كان يعمل في دقّ الحجارة. كان يصقل الحجارة وينقشها ويجعلها صالحة لبناء البيوت.

أخذ الشايب يستعيد صورته.

الوجه الأبيض المشرب بحمرة. . مثل حجارة الوردية.
تفاحة آدم، والشارب المشذّب.
الوجه الأنيق الذي يدل على المهارة والفن.
تخيّله ينقش بالإزميل الصخور البيضاء الخارجة من المقالع حديثاً. الصخور الطازجة. . يهندسها ويحوّلها إلى مستطيلات صغيرة، وينقش صفحتها بمهارة أبناء الكار الذين أخذوا الصنعة أباً عن جد.

ثم وقفت المرأة. . وقفت واستأذنت بالخروج. قالت إنها تريد أن تعود إلى عين الحلوة ويتعينّ عليها أن تعود أثناء النهار لأن الطريق غير مأمونة ليلاً.

خرجت يتبعها طفلها. ومن جديد ظل الشايب وحيداً. .

ومرة أخرى شعر بالبرد القارص، شعر بالصقيع. .
لفّ نفسه بالبطانية. . لفّ نفسه جيداً. .
كان ينشد الدفء الذي قد يأتي. .

- 4 -

هربت الدجاجة البيضاء.

غـافلت زليخة وخـرجت من القن. اعتلت السـور الـواطىء، ثم رفرفت بجناحيها ابتهاجاً بتحرّرها وقفزت إلى الشارع. رقبتها طـويلة نوعاً ما وريشها الأبيض نظيف..

ظلّت منذ الفجر وهي تزيل بمنقارها ما علق به من شوائب. عيناهـا صافيتان، ولها عرف أحمر قصير يتوّج رأسها الصغير ذا المنقار الرفيع. تمشي الهـوينى. تلتفت ذات اليمين وذات الشـمال، ثم تعبر الأزقـة.. تبتعد في الدروب الموحلة، وتتبختر كأنها بطّة.

ساقاها عاليتان، وفي نظراتها قلق زرافة الأدغال.

تمشي الهوينى، وتتهادى بكبرياء وغرور.

تتوقف قليلاً. تلتقط من الأرض حبة قمح وتمشي.

يمرّ كلب شرس له ملامح الذئب.. تتوجّس خيفة.

يعتكـر الصفاء في العينـين، وتنفش ريشهـا، وتنشب أظـافـرهـا، وتصبح مهيّأة للدفاع أو الهرب.

يـظلّ الكلب سائـراً وهو يلهث من تعب أو عـطش، ويمرّ إزاءهـا دون أن ينظر إليها.

تـظلّ ترقبـه إلى أن يختفي، وعند ذلـك تستعيد هـدوءهـا وتعـاود المشي، تشاهد في طريقها فأراً ميتاً جاحظ العينين فتتوقّف.

تحدِّق به، فجأة يسقط عليها الماء من المزراب ويبلِّلها فتبتعد. تنفش ريشها المبلَّل، وتنفض عن نفسها القطرات العالقة.

وفي زقاق آخر كان هناك سيل من ماء الغسيل، وفي زقاق ثالث كان (البرجاوي) بائع القماش، يوقف حماره، بينما تحلَّقت حوله النسوة. ثم مرّت مجموعة من الصيصان الصغيرة وهي تثير ضجيجاً، وتزهو بألوانها الصفراء الفاقعة.

تتوقَّف دجاجة زليخة عند الطريق العام. تتوقَّف وكأنَّها تتنفَّس. كأنَّها مهمومة وحزينة وقلقة.

كأنَّها واحدة من بنات المدارس يؤرقها واحد من أسرارها الصغيرة.

وانتفضت من جديد محاولة أن تجفِّف ريشها المبلَّل.

ثم مشت بضع خطوات.

توقَّفت من جديد، وظلَّت تحدِّق بعينيها الحذرتين.

بدا كما لو أنها فقدت الطريق وأحسَّت بالضياع.

ولقد توقَّفت وسط الشارع الذي ينحدر، وشعرت بشيء يكبِّل رجليها. كانت خيوط من الصوف تعلق وتلتفّ حولها. مدَّت رقبتها إلى أسفل، وحاولت أن تعالج الخيوط بمنقارها.

وفجأة.. داهمتها الكارثة!

فوجىء أبو العسل. فوجىء. ارتبك. خاف. توتَّر. شدّ اللّجام. فأبطأ الحصان ثم توقَّف.

نظر أبو العسل خلفه ـ كانت إحدى عجلات العربة قد داست دجاجة..

كانت الدجاجة البيضاء ملقاة وقد سال دمها واندفعت أمعاؤها إلى الخارج.

كيف حدث ذلك؟

عربته داست الدجاجة. ارتبك ثم ارتبك.

الشارع خال، والهواء بارد، وجناح الدجاجة المحتضرة يرتجف. هاجمته الوساوس وهاجمه إحساس بسوء الطالع، وبعد تردّد، عاود السير. مشى الحصان الهرم بتثاقل.

وصل بقالية السيلاوي فأنزل حمولته من أكياس البطاطا دون أن يتفوّه بكلمة.

وعندما كان السيلاوي يدفع له ثمنها قال له:

ـ ما لك يا رجل تعبث من أول النهار؟

لم يجب. دسّ النقود في جيبه، وعاد إلى البيت. فكّ الحصان ووضع له وجبة من التبن ثم ذهب إلى المقهى الصغير. جلس على كرسي من القش وطلب فنجان قهوة..

شربه ودخّن سيكارة.

كان يتململ. لذلك وقف، وعاود المشي..

حاول أن يتغلّب على الصقيع بأن نفخ أنفاسه في كفّيه.

مشى عائداً إلى بيته، وفي الطريق مرّ من هناك.

مرّ أمام المكان نفسه. كان يتجمّع عدد من الناس يتجادلون مع سائق سيارة، وكان السائق يرد عليهم بغضب دون أن يهبط من سيارته. كان يطلّ رأسه ويتكلّم بصوت مرتفع، وكان أمامه ثمة من يتكلّم بصوت أعلى من صوته.

السائق يحلف بالله أنه لم يدهس الدجاجة، والناس يتهمونه.

ومن خلال هذا الضجيج عرف أبو العسل أنها دجاجة زليخة.

أخ؟؟ قالها أبو العسل.. كأنما سقط شيء على أم رأسه. لم يكمل طريقه. توقّف، وقفل عائداً.. إلي أين.. لا يدري..

لكن قدميه ساقتاه من جديد إلى المقهى. فكّر في أهمية كأس من الشاي الغامق الأسود..

وأمامه كان البحر يوغل في العمق. كان يزمجر ويصطخب.

وفجأة.. أطلّ حمزة.. حمزة شط البحر..

ظهر من بعيد يحمل بندقيته، ويعود من نوبة الحراسة.

وقف له أبو العسل. وقف له قبل أن يصل.

حيّاه حمزة. تصافحا.

ـ ما لك تبدو قلقاً؟

تردّد أبو العسل، وأعلن عن ارتباكه مجدداً.

جلس حمزة، وسرعان ما أحضر خادم المقهى الشاي الساخن.

وبعدما سرى شيء من الدفء في العروق. سأل حمزة مرة أخرى:

ـ ما الذي يضايقك؟

أجاب أبو العسل:

ـ هذا الصباح دهست بعربتي واحدة من دجاجات زليخة.

أيقن حمزة أن المسألة تتعلّق بتأنيب الضمير، وأن ابن البلد الطيّب هذا سوف يحدّثه بعد قليل عن رغبته في دفع التعويض لصاحبة الدجاجة.

وعندما لم يقل ذلك، أيقن حمزة أن الرجل لا يملك من النقود ما يكفي.

ـ حسناً يا أبو العسل.. أستطيع أن أقرضك.

هبَّ أبو العسل واقفاً وبدأ يستعيد شكله القديم، لكنه سرعان ما عبس مجدداً، فهزّ حمزة رأسه وقال:

ـ حسناً تريد أن أصطحبك.. هيّا.

سارا في الأزقة. الأرض رخوة. يقتلع أبو العسل قدميه اقتلاعاً، وحمزة يمشي إلى جانبه ويشاكسه بين خطوة وأخرى.

وصلا بيت زليخة..

كانت تطلي حائط منزلها بالشيد الأبيض.

تغمس الفرشاة في الدلو، وتطلي الحائط بلون أبيض ناصع.

سعل حمزة لكي يشعرها بوجودهما. إلاّ أنها لم تنتبه، أو لعلّها تعمّدت عدم الانتباه.

قال حمزة: يعطيك العافية يا زليخة.

استدارت نحوهما ولم تقل شيئاً، ثم واصلت دهان الحائط باللون الأبيض.

كانت ملامحها حزينة. حزينة وغامضة.

لعلّها تحزن على دجاجتها البيضاء، لعلّها تمارس حزنها بطريقتها الخاصة.

ـ صديقنا أبو العسل دهس دجاجتك، وقد جاء يعتذر.

واصلت دهن الحائط بالفرشاة. كان يبدو كما لو أنها ترسم على الحائط عشرات الدجاجات البيضاء. كان يبدو كأنما تطلق عبر الحائط عشرات الطيور الناصعة.

ـ وقد جاء ليدفع لك التعويض.

توقّفت لحظة، ثم عادت تطرش الحائط بعنف وعصبية.

ـ أنا لا آخذ تعويضاً.. الله يسامحه في الدنيا وفي الآخرة.

- 5 -

عاد أبو العسل مهموماً مغموماً ثقيل الصدر. كان حصانه الهرم البطيء قد حلّ رباطه وذهب يرعى. وزوجته تغسل أمام الباب، تغسل بالماء الساخن ملابس الأولاد، تغسل ببقايا صابونة يشي ببؤسها قلة الرغوة.

قالت له: لماذا لا تذهب اليوم إلى العمل؟

لم يجبها. دخل غرفته. بدّل ثيابه وأخذ علبة سجائر جديدة من الخزانة وخرج.

كانت تعصر قطعة الملابس والماء ينقّط من مرفقيها ومن رموشها..

شعر بالتعاطف معها، وخطر له أن يقول لها كلمة حلوة، ثم تردّد.. ولكنه قال أخيراً بلطف:

- إذا سأل أحد عني فإنني ذاهب إلى بيت الشايب.

قال ذلك، ومشى حتى دون أن يوصيها برعاية الحصان.

مشى في الشارع..

صباح من قصدير أو توتياء. صباح من نحاس أو من صدأ.

أطفال ونساء، وصدور ضامرة. الخوف يطلّ من العيون، ويطلّ القلق والضجر. عبر الشارع.. شارع الإسفلت، هناك أمام المطعم. مطعم الشواء. وقفت سيارة (ألفا روميو) الصفراء.

وقفت وهبط منها سعيد. كانت سيارة صغيرة تتسع لـراكبين فقط. سيارة لا يشاهدها المرء إلاّ في مسلسلات التلفـزيون أو في إعـلانات السجائر.

فتح الباب، وتبـين أن سيارة جيب عسكـرية تـرافقه، فـما أن فتح البـاب حتى قفز أحـدهم من السيارة العسكـرية وأسرع ففتـح الباب على سعته.

كـان سعيـد يلبس بنـطالاً ضيِّقـاً وتتـدلى من رقبتـه سلسلة تنتهي بأونصة ذهب.

قال أبو العسل للشايب:

ـ شاهدته بعيني هذا الرقيع الذي يلبس بنطالاً ضيِّقـاً أزرق اللون، وكانت تتدلى من رقبته سلسلة تنتهي بأونصة ذهب. . .

وكان شعره مرجلاً ولامعاً، وتحت أذنيه بقـايا الصـابون بمـا يوحي أنه جاء لتوه من صالون الحلاقة.

وقف ينظر حواليه، وتعبث أصابعه بحمّالة مفاتيح أنيقة، ثم انحنى وأخرج علبة سجائره التي يحتفظ بها تحت الجورب لأن بنطاله يخلو من الجيوب. . وأخرج سيجارة، فأشعلها له الرجل الذي يقف قربه. .

ثم دخل المطعم. . مطعم الشواء، ودخل المرافقون وراءه.

يا إلهي. . سيارة وملابس أنيقة وأونصة ذهب. من أين يأتي سعيد بالمال؟

وكان مما قاله الشايب في ذلك النهار الطويل:

ـ كان في قريتنا أيام ثورة ٣٦ رجل اسمـه (ماهـر الهر) كلّفتـه الثورة بمهمة جباية المال. وكان أهالي قريتنا وأهالي القرى المجـاورة يتبرعـون

بالجنيهات وبالحلي والأساور. . وقد جمع كمية كبيرة من المال. لكنه لم يسلِّم هذا المال إلى صندوق الثورة، وإنما حمله وهرب به إلى الخارج. . .

وقد بحثت عنه الثورة وطاردته ولكنها لم تتمكَّن منه. .

وبعد أن توقَّفت الثورة وانتهى الإضراب الطويل وعاد المطاردون إلى بيوتهم، رجع ماهر الهر. . رجع إلى القرية، رجع وجيهاً ثرياً، فبنى بيتاً واشترى سيارة بأموال الثورة المسروقة.

لكنه، صار يمشي في الشارع، فيقول الناس هذا هو الهر الذي سرق أموال الثورة. .

وبعد النكبة صار الهر لاجئاً معدماً في المخيَّم، وما هي إلا شهور حتى مات بعد أن أصابه داء خبيث، تاركاً وراءه ابنه الشاب.

وفيما بعد صار الناس يشيرون إلى الولد الشاب ويقولون: هذا هو ابن الهر الذي سرق أموال الثورة.

وبعد سنة أو سنتين تزوَّج الولد الشاب، وأنجب طفلاً. وكبر الطفل وأصبح يافعاً فصار أهالي مخيَّمنا يشيرون إلى الطفل ويقولون: هذا هو حفيد الهر الذي سرق أموال الثورة. .

وتنهَّد الشايب وأضاف: للناس ذاكرة حادَّة. . للناس ذاكرة حادَّة.

□ □ □

تحدث الرجلان طويلاً. . كان لهما مزاج معكور هذا اليوم.

فقدت الكلمات تلك العذوبة التي كانت لأحاديثهما في أيام سابقة.

ولعل كلاًّ منهما كان يشعر بحاجة إلى الانفراد بنفسه، مثلما يحدث عندما تكون هنالك صدمة. لكن عندما تململ أبو العسل موحياً بأنه سيخرج.

قال الشايب: اجلس يا أبو العسل.. الليل طويل.. اجلس.

كان أبو العسل قد هيَّأ نفسه للخروج، كان قد لملم ثيابه ووقف فجلس. جلس وأسند ظهره إلى الحائط.

وتحدَّثا مرة أخرى عن الأيام الصعبة. تحدَّثا عن الحرب، وعن الرجال الذين يسهرون في مواقعهم. وتحدَّث أبو العسل عن صعوبة العمل في الحقل الذي يعمل فيه، وحكى الشايب عن أيام البلاد. حكى عن عبد الرحيم الحاج محمد، وأبو درّة، والشيخ فرحان - حكى عن الحراثة والفلاحة وزراعة الدخان في يعبد. تذكَّر ذلك، وحنّ إلى سيكارة من دخان يعبد الحامي..

من دخان يعبد المندوري.

حكى عن شتلة الدخان، منذ أن تكون بذرة، إلى أن تتحوَّل إلى شتلة، إلى أن يزهر نوّارها، إلى أن تصبح حزمة.. حزمة تجفَّف ثم تفرم.

يقول الشايب: تفرم الدخان بيديك. يصبح لإبهامك لون أسود. في المساء تعود إلى البيت لتأكل لقمة، ينتقل طعم المرارة من إبهامك إلى الخبز. تقوم فتغسل يديك بالماء والصابون، وتعود إلى الزاد.. ويا للمفاجأة!

تظلّ المرارة تنتقل من إبهامك إلى لقمتك.

وإذا كنت زارع دخان حقيقيّاً فإنك ستتعوَّد على طعم المرارة.. ستتعوَّد على النكهة المرّة.

آه. . كم تعوّدنا على المذاق المرّ. . كم تعودنا على الحياة المرّة.

وفجأة. . أضاءت السماء.

فجأة أضاءت السماء. برقت ثم حدث انفجار هزّ الغرفة. لا لم تبرق، وإنما أضاءت وسطعت، ومن النافذة كان القنديل يهبط من أعالي الفضاء فعرف أنه إشارة تنوير.

وبعد ذلك جاءت أصوات زخّات الرصاص. زخّات متتابعة تذهب هناك وترتدّ مع الصدى.

وقفا في وقت واحد. استيقظ الكلب وبدأ يدور حول نفسه، هبّ الشايب، وأسرع إلى الخزانة فأخرج البندقية. أخرج الجعبة. أخرج قنبلة يدوية.

دوّى انفجار. سقطت قذيفة في مكان قريب. تعالى صياح وولولة نساء. تعالى صراخ وحريق.

اقشعرّ بدن أبو العسل. تخيّل زوجته والماء ينقّط من كوعها ومن رموش عينيها.

تخيّل زوجته مضرّجة. تخيّلها تصرخ وتلطم. أو تشقّ ثوبها.

ثم سقطت قذيفة أخرى أمامهما أو وراءهما. .

أو في منتصف المسافة بينهما. .

تمالك الشايب قواه. استجمع نفسه. خاف أبو العسل. ارتجف. وعند ذلك انقطع التيّار الكهربائي، غير أن النور الساطع ظلّ يضيء المكان، لكنه نور له حلكة ظلام البراري. لكنه نور يفتح فكّيه على سعتهما.

إنهم يقصفون من البحر. .

وجاءت أصوات حوّامات. طائرات هليوكبتر، هدير يأتي من العمق، طال الزمن لحظات، لكنها زمن يطول ويطول.

- هيّا.

قال الشايب. تساءل أبو العسل:

- إلى أين؟

وعند ذلك، بدأ مدفع الـ ٨٥ يعمل. استطاع الشايب أن يميِّز صوت قذيفته من بين الأصوات جميعها.

- ألا تسمع.

- ماذا؟. .

- إنه مدفع حمزة. . . هذا يعني أننا نشتبك معهم. . هيّا. .

- إلى أين؟. .

- إلى الشاطىء. . إلى الكمائن الأمامية. .

خرجا عبر الباب الضيّق. هجمت رائحة البارود والدخان، وهجمت موجة صقيعيّة. وعند ذلك، أية قوّة دبّت في قلبك يا أبو العسل. .

جاءت أصوات مدافع من مختلف العيارات، ومن وراء التلال انحداراً عبر الأزقة، وكانت إشارات التنوير تنوس وتقترب من السقوط.

توقّف أبو العسل. . إننا نمرّ من أمام بيتنا. . انتظرني قليلاً لكي أحضر البندقية.

ظلّ الشايب يمشي. ظلّ ينحدر عبر الأرض المائلة. ولعله قال دون أن يلتفت وراءه:

ـ هات بندقيتك والحقني.

ثم غاب في دغل من أشجار الموز.

وعندما وصل عرف الشايب ما حدث باختصار. كانت هناك محاولة إنزال من خلال زورق مطّاطي فاشتبك الشباب معه وأصابوه، وعند ذلك تدخلت البوارج والحوّامات لإخلاء الزورق والمصابين. وقد انتهت العملية.

قال حمزة: لتستمر حالة الاستنفار القصوى..

اختفت زوارق الصيّادين من البحر. لاذت بالفرار. وكان القمر يغيب وراء غيوم قلقة. ووراء العتمة عتمة. وقرب المدفع القذائف جاهزة، وحمزة شط البحر يتنصّت على الجهاز بانتظار التعليمات من العمليات المركزية.

وراء العتمة عتمة، ومن وراء الأشجار السوداء تأتي رائحة البحر الأسود المظلم.

وهذا الصمت يجعل لهذا الليل لغة وحشية.

تمدّد الشايب. اضطجع وإلى جانبه البارودة. لحظات تذكّره بالأيام الأولى لحصار تل الزعتر.

قد يلمع شيء ما وسط هذا البحر الواسع ويبدأ الانفجار. هكذا تكون البداية، وبعدها تزلزل الأرض زلزالها.

طال الانتظار ولا من جديد.

عبر جهاز اللاسلكي يتكرّر أمر غرفة العمليات: الحيطة والحذر. كلمات تتكرّر وحمزة شط البحر يستمع. يده تقبض على الجهاز الصغير الذي لا يكفّ عن الخشخشة. يده ترتخي فيما بعد، ولكنه لا ييأس من الاحتمالات.

الحرب.. الحرب. قذيفة واحدة كانت تسقط في الزعتر فتدمِّر عشرة بيوت دفعة واحدة. قذيفة واحدة كانت تجعل الحليب ينشف في أثداء الأمهات. قذيفة واحدة تقصم ظهر الملجأ، وتترك الدخان يصنع سقفاً من السواد فوق البيوت. وفجأة جاء المدير.

صمت كل شيء. توقَّف جهاز اللاسلكي، وتحوَّل كل شيء إلى آذان..

آذان مرهفة تلتقط كل شيء حتى حفيف الأوراق وتلاطم الأمواج، وحركة الهوام التي تدبّ بين الحقول.

- 6 -

في موقع آخر. في سفح التلّة. قريباً من الصخور المسنّنة التي تنطح بقرونها الموج، كان الزهيري (فرّان المخيم وزجّاله) الذي يتسلّح برشّاش جرينوف يتدثّر بمعطفه، ويلفّ حول رأسه كوفية وينظر إلى البحر بتحفّز.

فهمس: هل سمعت الهدير؟
أجاب أبو العسل: إنه يقترب.

البحر وردة سوداء. قال الزهيري لنفسه. البحر وردة الخوف هذه الليلة، وردة القلق ووردة النار.

الأرض رطبة، والحشائش الطرية التي تطلّ حديثاً تكسو الأرض كما يكسو زغب الريش أبدان العصافير. «في هذه اللحظات ما أعظم الدفء».

اقترب الهدير أكثر فأكثر.
لعلّه هدير طائرة مروحية.
أو هدير ناقلة برمائية.
أو لعلّه الهواء الأصفر، أو رياح السموم، أو العواصف الصرصر العاتية.

سأله الزهيري: هل أنت خائف؟

كانت يد أبو العسل تلامس أخمص البندقية، فضحك وقال:
ـ لو كانت عكّا. .

ثم ابتعد الهدير. ابتعد في العمق، ولكنه لم يتوقّف. ظلّ يتواصل مثل الصدى الذي يتردّد في القيعان وأعماق الكهوف. وعند ذلك، شعر الزهيري بحاجة إلى كوب شاي ساخن، فتذكّر زوجته. زوجته التي يحبّها ويحبّها، والتي قال فيها أيام زمان عشرات المواويل. .

أحسّ بها تتألّق كما اللهب الأزرق. خدّها تفاحة اللهب وجسدها بعد منتصف الليل يسخن أو يفور.

ـ تفكّر بزوجتك. . أليس كذلك؟ ـ وكيف عرفت؟

سأله أبو العسل. ففوجىء، ولعلّه ارتبك أو تصاعد الدم إلى وجنتيه، لكنه بعد ذلك ضحك وقال:

وكيف عرفت؟

أحسَّ أبو العسل أنه كان فجّاً وغليظاً، فقال:

ـ سامحني. . عندما غبت عني طوال هذه الفترة قلت لنفسي لا بد أن الزهيري العاشق يذهب بعيداً إلى «الدفا والعفا». .

ضحك الزهيري مرة أخرى، ثم قال:
ـ وأنت بماذا تفكّر يا أبو العسل؟

ابتسم. ثم ابتسم:
ـ كنت أفكّر بالحصان. .

لقد سرح بالحقول ولم يعد. كانت زوجتي والأولاد بالملجأ فلم يتمكّنوا من الخروج للبحث عنه وإطعامه.

ـ هل تهتمّ بحصانك إلى هذا الحدّ؟

ـ إنه حصاني الوفي يا زهيري. يتحمّل من أجل رزق أطفالي. إنه يعمل معنا في الحقل... إنه يجرّ العربة منذ سنوات طويلة، وقد بدت عليه في السنوات الأخيرة علامات الشيخوخة.

«لم يعد يقوى على جرّ العربة عندما تكون محمّلة بوزن ثقيل. هل تصدّق أنني بدأت أشفق عليه؟

«بدأت أحنو عليه ولا أحمل في العربة إلاّ الأشياء الخفيفة. أقول لك.. أحياناً عندما يكون هنالك طريق عالية أو وعرة، فإنني أنزل وأقوم بدفع العربة لكي لا أثقل عليه»..

وعند ذلك عاد الهدير يملأ الفضاء. عاد فجأة، فصمت الاثنان.

ـ طويلة هذه الليلة.

قال أحدهم من قلب العتمة، فأجابه حمزة:

ـ هل تشعر بالتعب؟

صمت الشاب من قلب العتمة.. من وراء أكياس الرمل.

صمت ولم يجب.

قال حمزة: في هذه اللحظات كل قواتنا في حالة استنفار من صور حتى الحمّام العسكري.

أجابه الشاب: أنا لا أتذمّر ولا أشعر بالتعب، ولكني أشعر بالقلق.

ـ مِمّ تقلق؟

ـ أفكّر بالبوارج الحربية التي تقف أمامنا في عرض البحر...

.... إذا هاجمتنا ومعها الطائرات الرهيبة.. هل نستطيع أن نواجهها بسلاحنا هذا؟

قال آخر من وراء المتراس كلمات سمعها من المفوّض السياسي:

ـ الحرب صراع الإرادات.

وقال ثالث:

ـ تساندهم أميركا. .

ودار حوار بين الشباب حول الراهن والمستقبل.

أنصت حمزة. أنصت جيداً. علمّته التجربة أن يستمع إلى آرائهم، لكنه أحسّ بأن الشاب الذي يحكي عن البوارج الحربية مرتبك ومهزوز، فخاطبه قائلاً:

ـ رضوان، هيّا معي نقوم بجولة على المواقع الأخرى. . ننشّط دورتنا الدموية ونأنس بزيارة رفاقنا.

ثم قال مخاطباً الشايب: لن نتأخّر كثيراً أيها الشايب.

فأجابه الشايب ممازحاً:

ـ اليقظة والحذر. . اليقظة والحذر. .

صمت. . صمت.

الطبيعة وحدها تتكلّم.

الظلام يكبر ويكبر ويكبر ويصبح بحجم الكثبان والتلال.

صمت. . صمت. .

الموج يصطخب، والرؤية غير واضحة.

غاب المدير مخلّفاً وراءه الصمت.

الصمت يصرخ في هذه القفار.

الطبيعة تبدو شرسة ووحشية، ومثل القنبلة الموقوتة قابلة للانفجار.

كل شيء يبعث على الريبة. حركة الأغصان. اندفاع بنات آوى بين أشجار الليمون، وتدحرج الحجارة الصغيرة من القمم إلى السفوح بفعل الرياح.
صمت.. صمت.

والرياح تحمل رائحة البرتقال، وتندفع في زوبعة إلى عرض البحر، فتضيع رائحة البرتقال وسط رائحة الملوحة والزنخ.

وحمزة شط البحر يمشي وسط العتمة، يحفظ تضاريس الأرض ومنعرجاتها، يمشي كأنما لقدميه عيون.

لا يتردَّد ولا يتوقَّف ولا يتحسَّس الطريق بصعوبة. وخلفه يسير الشاب.
في البداية مشى الشاب بصعوبة. كان يخشى أن يسقط في القاع حتى أن المسافة بينه وبين حمزة قد اتسعت.

حثّه حمزة على الإسراع، وعندما جاءه صوت حمزة امتلأ بالثقة. وإذ أصبح أمامه سأله الشاب:

ـ كيف تستطيع أن تمشي بهذه العتمة دون أن تتوقَّع السقوط في حفرة أو هاوية؟

ـ أنت جديد التحقت بنا منذ أيام، وخلال شهرين سوف تتعلَّم كل شيء.

كان الفجر يقترب..

هبطا إلى أسفل. وصلا الصخور التي تلاطمها الأمواج. الصخور التي تنمو عليها الطحالب. اللزوجة تلتصق بنعال الأحذية، والفضاء يوحي باقتراب بزوغ الشمس. ثمة ضباب أو غيوم مفتّتة. ضباب أو

دخـان ضال يقلع عـلى غير هـدى، ومن خلال هـذا الغبش الشفّاف كـانت هناك آثـار محاولـة الإنزال عـلى الشـاطىء. قـطعـة من زورق مطاط. . ، وبعض المعلّبات وأشياء أخرى. .

قفز حمزة من صخرة إلى أخرى. من الصخرة إلى الرمال، وخاض بالماء. ثم قال:

ـ أستطيع أن أرى بقعاً من الدم. . ما أكثرها؟

وهبّت موجة باردة صقيعية، فشرد حمزة قليلاً ووجف قلبه.

حلّق به الشاب مستغرباً. كان حـمزة ينظر إلى البحـر ويقرأ المناخ بالعين المجـرّدة. وعندمـا عاد كـانت الريـاح قد بـدأت تهبّ بعنف، وكانت الأمواج قد بدأت تعلو وتعلو. .

وإذ وصل، تناول جهاز اللاسلكي، وحكى مـع الكمائن الأمـامية والمواقع الخلفية، أغلق الجهاز وعاد ينظر إلى البحر، كان يستـطيع أن يتنبأ بالموعد الذي ستهبّ فيه العاصفة البحرية. . .

تكلّم الشاب: أسمع أصوات الرياح في العمق.

هزّ حمزة رأسه. . وقال:

ـ عمّا قريب ستهبّ عاصفة بحرية. . إعصـار هائـل. . وعلينا أن نكون على استعداد لمواجهته.

صمت الشـاب. كـان يحـاول أن يـرسم في ذهنـه صـورة إعصـار بحري، فارتجف. . أحسّ بالقشعريرة تجتاح بدنه.

- 7 -

هبَّ الإعصار فجأة. اندفعت الرياح ذات الأنياب، وعوت كما الذئاب. اندفعت الرياح ذات القرون ونطحت الأشجار والسهول. اقتلعت النباتات الصغيرة من جذورها، خلعت نوافذ بيوت التنك، وإطارت الصفيح من على سقوفها، هزّت جدران بيوت البلاستيك ومزّقتها وأتلفت شتلات البندورة الغضّة. لوت أعناق أشجار السرو الباسقة ونهشت أحشاء شجيرات المندلينا، جنّت فاندفعت من الأبواب والنوافذ والفجوات، وقلبت الأشياء رأساً على عقب.

طار صوابها فجرّدت حبال الغسيل من الملابس وأخذتها بعيداً إلى ما وراء الأفق..

واصلت جنونها، فقلبت بسطات الخضار والفواكه، وأطارت كفّات الموازين النحاسية في كل الطرق.

مرّت الرياح المجنونة التي تشتعل كاللهب، وخلعت باب الحوش، وحطّمت باب قن الدجاج، وبعثرت القش والريش وحبّات العلف. فصاحت دجاجتا زليخا صياحاً منكراً، ورفرفتا، واندفعت إحداهما مع الرياح إلى الخارج.

اندفعت الدجاجة مقصوصة الذيل، ففردت جناحها، وطارت قليلاً ثم حطّت على الأرض واندفعت تركض على غير هدى بقوة الدفع..

وقال الشايب: يا لطيف الطف.. يا لطيف الطف. قال لنفسه لم يسبق لي أن رأيت مثل هذا الإعصار من قبل. ودار كلبه المشعث حوله مرتعداً.

كان خشب النافذة يهتزّ. كانت الرياح تدقّ بكلتا يديها. وكان السكّان يكتمون أنفاسهم. يصمتون. يحدِّقون في النوافذ بقلق. متى تنكسر وتهجم الريح المجنونة؟

الشوارع خالية، ولا يقطع هذا الصمت سوى صرخة استغاثة بين حين وآخر.

ترتفع الأمواج.. عالياً ثم تحطّ بكل ثقلها فيتطاير الزبد ويتبدَّد الشلّال. ترتفع عالياً كمية هائلة من الماء وتحطّ فوق الصخور المسنَّنة.. ترتفع الأمواج مجدَّداً، وتلقي بنفسها، بعنفوان هائل فوق الصخور وتندفع عبر الشقوق والمنحدرات وتغمر الشارع. تظل تنهض، تنحني مع الرياح الشمالية الغربية، تنحني عالياً، ترتفع رويداً رويداً. تصبح تلالاً شاهقة. تصبح جبالاً لها ذرى، ثم تهوي.. تنتحر فوق الصخور المسنَّنة. تنكسر وتتحطَّم وتتلاشى.

ظلَّت تتكرَّر منذ العصر. مع هبوب الإعصار السام.

وكان حمزة يتدثَّر بالمعطف الواقي من المطر، ويتراجع رجاله وعتادهم إلى الخلف. هذه ليلة جهنميّة أسهل منها أن تشتبك بكافة الأسلحة مع العدو، كانوا مبتلِّين. كان الماء ينقّط من رموش أعينهم.

كانت المياه تشنّ هجومها اليائس على الصخور، وتتدفَّق عبر الأقنية والشعاب وفجوات الصخور، وتغمر الشارع العام حتى أن السيارات، الخاصة والعمومية، الصغيرة والكبيرة، كانت تعجز عن

العبور فتحوّل سيرها إلى الطرق الجانبية باتجاه مرتفعات الشوف.

سحب حمزة رجاله وأسلحته إلى الموقع البديل في تلّة المشرف، ومكثوا فوق التلّة المزروعة بأشجار شوكية جافة. مكثوا تحت منحنى لا تصله الأمطار وبدأوا يمركزون مدفعهم ويرتّبون مكان نومهم. خلع حمزة معطفه الواقي، ونظر إلى البحر من علٍ. لم تكن الرؤية واضحة. أنصت لأصوات الرياح المختلطة بهدير الأمواج واصطخابها، فازداد إحساسه بالوحشة والخطر. تحسّست يده البندقية المعلّقة على كتفه. كان عنف الرياح الوحشية يزداد. ولأمر ما شعر حمزة برغبة جارفة في أن يسدّد بندقيته إلى اللاشيء ويطلق غريزياً بلا توقّف.

□ □ □

ازدادت سرعة الرياح، وازداد القلق. وبدا كما لو أن الإعصار سيقتلع كل شيء من جذوره.

ازدادت اندلاعاً في الشوارع. في الحارات والأزقة. كالنيران تأكل بعضها بعضاً. الموجات الكبيرة تأكل الموجات الصغيرة، والرياح الأقل قوّة تتلاشى وسط الرياح الأكثر قوّة.

وتختفي الزوابع الصغيرة أمام الزوابع الكبيرة، والصفير لا يتوقّف.

صفير رياح أم عزيف الجن؟ صفير أم عربدة الشياطين؟

الشوارع خالية. خالية. الجو قاتم والنهار لا يزال في منتصفه. الشوارع خالية كأنما هذه القوة الشيطانية منعت التجوّل.

ولا شيء أثمن من الدفء في هذه اللحظات. لا شيء يعادل لقمة

ساخنة. لا شيء يعادل زاوية متينة لا تصلها الزوابع، لا شيء أمنع من مكان حصين لا ترقى إليه الأمواج الشرسة...

□ □ □

وكان أبو العسل يضع كيساً من الخيش على رأسه ويشقّ طريقه بصعوبة وسط دوّامة الرياح. ينفخ أنفاسه الدافئة بين حين وآخر ويخوض في الصقيع والزمهرير، ويجاهد لكي يتقدّم خطوة.

ما أثقل قدميه. يكاد كيس الخيش يطير عن رأسه. تندفع موجات أخرى من الهواء. لقد دار ودار في الضواحي، دار وعاد إلى مكانه كأنه يدور حول نفسه.

خرج يبحث عن حصانه الهرم الذي هام على وجهه بعد أن أطارت الرياح غرفة الصفيح التي ينام فيها. لم يتمكّن من اقتفاء أثره. تعب وتعب وآلمته عضلات رجليه.

أسلاك الهاتف تصفّر فوق أعمدتها، وتواصل الرياح عواءها، وكان يشعر بأن الرياح تقتلعه ثم تحمله بعيداً هناك عند قمم الصخور المسنّنة.

أين اختفيت أيها الحصان؟

صار أمام فرن الزهيري. هجمت عليه فكرة الدفء. بصق واعتصره الألم. ثم دخل الفرن.

كان أحمد البشكار يرقّ العجين ويضعه على الطرحة.

كان الزهيري قد أشعل الفرن وأخذ ينتظر.

دخل أبو العسل. عيناه جاحظتان، يرتسم على وجهه الوجع والانكسار.

ـ السلام عليكم.
ـ وعليكم السلام.

داخل الفرن الدفء والوهج. وجه الزهيري يضيء، وتنعكس عليه ألسنة اللهب. الوقت ما يزال مبكّراً على العمل ولم يحضر أحد من الزبائن في هذا الجو المشحون.

ـ لماذا خرجت في هذا الجو القاسي؟

لم يجب أبو العسل على الفور، وإنما اقترب من الدفء أكثر.

ثم قال: ضاع الحصان فخرجت أبحث عنه. صبَّ له أحمد البشكار كوب شاي، وسأله:

ـ هل وجدته.

شرب أبو العسل الشاي الأسود، ونفى بوجه مكدود.

قال له الزهيري: لا تقلق إنها ليست المرّة الأولى التي يغيب فيها ثم يعود إلى مكانه.

وأضاف كأنما ليطمئنه: عما قريب سوف تتوقّف العاصفة ويهدأ الجو.

وصب له أحمد البشكار كوباً ثانياً، فشربه أبو العسل. شربه على دفعتين. سرى الدفء في عروقه، فشعر كما لو أنه كان مبلولاً فنشر فجفّ أو أن صدره كان مثقوباً وأصبح بلا ثقوب.

ظلّ الزهيري يحدّق في بيت النار، يتأمّل النار المتّقدة. تتوهّج عيناه بتلك الشعلة الدائمة التي لا تنطفىء.

دخلت فجأة السنيورة. دخلت بوجه شاحب وشفتين زرقاوين. كانت ترتجف بشكل ملحوظ. وهمهمت بما يشبه التحية.

عبس أحمد البشكار. لم يكن أحد يرغب في الحديث مع امرأة سيئة السمعة مثلها.

ـ اعطني كيلو خبز يا زهيري.

ومدّت يدها إلى صدرها، وأخرجت قطعة نقود.

صدرها الذي يبدو هذا اليوم ذابلاً على غير عادة.

قال أحمد البشكار بجفاف:

ـ عودي بعد ساعة يا سنيورة. بيت النار لم يسخن بعد.

ظلّت واقفة وتجاهلت كلامه، فانتهرها البشكار:

ـ قلت لك يا سنيورة عودي بعد ساعة، لن نخبز قبل ساعة.

تجاهلت كلامه وظلّت صامتة، كان لها وجه حزين هذا اليوم، وعينان كسيرتان. غاب الوجه الصارخ بالمكياج والنظرات الفاجرة.

ولاحظ أبو العسل كما لو أن أسنانها تصطك، أو أن صفحة وجهها ترتجف.

وقال أبو العسل لنفسه: لا بد أن الصقيع قد نخر عظامها، والجوع قد هدّها.

في الماضي كانت تدخل وتثير الضجيج، وتقفز إلى الدكّة الخشبية، وتضع رجلاً فوق أخرى وتشعل سيجارة، وتحكي كلاماً صارخاً يحتمل أكثر من معنى، فيغضب أحمد البشكار، ويزداد وجه الزهيري احمراراً، وتنسحب بعض النساء المحافظات من داخل الفرن، ولا تخرج إلاّ بعد أن تأخذ الخبز قبل أن يأتي دورها.

ظلّت السنيورة واقفة بانكسار، ثم تجرّأت وجلست على حجر في زاوية الفرن. خيّم الصمت. ظلّ صوت الاشتعال داخل الفرن

يعبّىء الفراغ والصمت. أما الزهير فقد ظلّت تكمن في عينيه أسرار النار الكامنة في قلب حجارة الصّوان.

قصف الرعد في الخارج، وأخذت تمطر.

تناول الزهيري رغيفاً نيّئاً. وأدخله في بيت النار. ظلّت السنيورة صامتة، ولعلّ الدفء قد سرى في جسدها، فقد توقّفت صفحة وجهها عن الارتجاف.

أشعل أحمد البشكار سيجارة، وأدار الراديو. انتشر صوت المذيع وحلقة من الدخان، وازداد المطر عنفاً.

دخل كلب ضال. لعل أحداً كان يطارده أو لعل الرياح كانت تسوط ظهره. دخل مسرعاً، وكان مبتلاً والماء ينقّط من أذنيه ومن شعر ذيله، نهره البشكار فلم يخرج، وظل ينظر مطأطىء الرأس.

فقال البشكار: لا أحد يردّ هذا اليوم.

وقال أبو العسل: إنهم ينشدون الدفء.

صمت البشكار وعاد إلى سيجارته.

وأخرج الزهيري الرغيف الذي تحمّر، وامسكه بأطراف أصابعه ثم ألقاه في حجر السنيورة.

انتشرت على الفور رائحة المسام البشرية.

وإذ ذاك شمّ أبو العسل رائحة الانسان تفوح من أصابع الزهيري.

وتكلّمت السنيورة: لا تؤاخذوني يا جماعة كان البرد يجرح عظامي.

وقال أبو العسل لنفسه: صحيح أن الزهيري لا يصلّي ولا يصوم، ولكنه واحد من أولياء الله.

مدّ الكلب عنقه إلى الأمام، كأنما لتقبض حاسة شمّه كل تلك الرائحة التي أثارها الرغيف الساخن.

قسمت السنيورة كسرة خبز، فتصاعد الدخان المخبّأ في طيّات الرغيف. تقدّم الكلب خطوة، فألقت السنيورة كسرة الخبز، وأقبل فتناولها.

وعند ذلك، استطاع أبو العسل أن يتبيّن أن هذا الكلب هو كلب الشايب..

ما الذي أتى به؟ كلاهما عجوز..

كلاهما لا يقوى على تحمّل هذا الصقيع الذي يجرح شغاف القلب، هذا الصقيع الذي يجز كالمسامير.

داعبته السنيورة، فبسط الكلب ذراعيه، وتمدّد على الأرض الدافئة.

تساءل أبو العسل بينه وبين نفسه: لماذا تبدو هذه المرأة الكريهة الآن امرأة عادية لها شحوب نساء المخيّم اللواتي يشتغلن في قطف الخضار في الحقول؟ لماذا تبدو عادية ويشعر المرء برغبة في أن يجاذبها أطراف الحديث.

وبعد ذلك أكلت السنيورة لقمة من الرغيف الساخن.

وعندما كانت تلوك لقمتها كان أبو العسل يشعر بالشبع، وأغمض عينيه وتذكّر حصانه الضائع، فحزن.

ابتسم البشكار بحنان، وحوّل الزهـيري نظراتـه الدافئـة عن بيت النار، ونظر إلى مسـاعده، نـظر البشكار إلى (أبـو العسل) ـ نـظر أبو العسل إلى السنيورة. نظرت السنيورة إلى الكلب. رفـع الكلب رأسه ونظر إلى الزهيري.

كان الدفء خيطاً، وكانوا حبّات مسبحة.

- 8 -

توقّفت الرياح. خفّت سرعتها وبدأت تهدأ رويداً رويداً.

كأنما هدّها التعب، فبحّ صوتها، وتقطّعت أنفاسها، ثم خمدت.

توقّفت العاصفة البحرية. تراجعت الأمواج إلى الخلف. انحسرت وانحسرت وعادت إلى الوراء. توقّف الاصطخاب، والعنف وعاد البحر هادئاً.

توقّف الهدير، وانقشعت الغيوم القاتمة.

انبلج الفجر. وأضاء الأفق مثل صدر انفرجت أساريره.

أضاء الفجر الصادق، وتجرّأت بعض الطيور وفردت أجنحتها كالأشرعة، ومسّت بصدرها الماء.

شمل الكون هدوء مفاجىء. شمله صمت ليس له مثيل.

ما الذي روّض الأمواج الشرسة وأستأنسها؟

عادت الأمواج إلى طبيعتها، وإن كانت لم تستعد لونها الأزرق الوديع. كانت لا تزال محمّلة بالطين والرمال. ولكن في العمق..

كانت زرقاء شديدة الزرقة..

امتلأ الشاطىء بالسمك الميت. السمك الصغير والمتوسّط، حملته الأمواج وانحسرت وخلّفته وراءها. كانت الأسماك تفتح أعينها على سعتها، أعيناً ممتلئة بالحياة تحدّق بهذا الفضاء كأنها تستمتع بقيلولة.

وعند الصخور، كانت العاصفة قد حطّمت قوارب الصّيد الصغيرة، وألقت بقطع الخشب هنا وهناك.

أما أعمدة الكهرباء فكانت قد اقتلعت من جذورها، وسقطت على الأرض، وسقطت معها الأسلاك.

وقد قذف البحر أيضاً أكواماً من النفايات.. علب صفيح فارغة.

أعشاب سوداء ميتة. بقع من الزيت المختلط بالشحم وما شابه ذلك من فضلات السفن.

انحسرت الأمواج وأبقت كل هذا الزخم على الشاطىء.

ساد الهدوء. وكان لا بدّ من مرور وقت ما لكي يدرك الناس أن كل شيء عاد طبيعياً.

أشجار الموز توقّفت عن الترنّح، ولكن أغصانها العريضة فقدت خضرتها اليانعة وجفّت. بل إن أطرافها قد اصفرّت، وتدلّت بلا حول ولا قوة. أما أشجار المندلينا فقد تطايرت أوراقها الصغيرة، وسقطت ثمارها وغاصت في الأرض الموحلة.

وقد أصبح بالإمكان عبور السيارات على الطريق الجديد العريض أو المرور من فوق الجسر على الطريق القديم.

لكن حركة المرور لم تكن نشطة..
وقد بدأ نشاطها عندما اقترب النهار من الانتصاف.

جاءت من بيروت سيارات الإمداد والتموين المركزي تحمل المؤن ومواد الإسعاف. ثم جاءت سيارات (الأنروا) تحمل أكياس الطحين، وسيارات البلدية من الناعمة والجيّة، كما جاء فيها بعد موظفون من شركة الكهرباء..

وقد أفاق حمزة بعد ليلة مضنية قضاها في موقعه الجديد بتلّة المشرف.

نام فوق فرشة الاسفنج الرطبة، وتغطّى ببطانية سميكة تفوح منها رائحة دواء العث.

نام أو أغمي عليه. . لا يدري، ولكنه عندما أفاق كان الصداع يقسم رأسه إلى نصفين.

تمطّى وتثاءب.

وحوله كان الشبّان ينامون ما عدا عنصر الحراسة.

كانوا ينامون وقد انتفخت وجوههم مثل غرقى انتشلت جثثهم من أعماق البحر.

كانوا قد صارعوا الرياح في ليلة نحس عزّ فيها النوم.

أما الحارس الشاب الذي يتدثّر بمعطف عسكري سميك أكبر من مقاسه فقد كان يبذل جهداً من أجل أن يظل يقظاً.

أحياناً كان يغفو للحظة ثم سرعان ما يستأنف اليقظة.

يترنّح رأسه تحت ثقل صدى الإعصار الذي ما زال يتردّد في رأسه مثل بحّار يترنّح تحت وطأة دوار البحر.

استيقظ حمزة وغسل وجهه وشرب من المطرة، ثم شدّ حزامه حول وسطه وبنّد حذاءه ثم ذهب إلى الخلاء ليقضي حاجته.

وعندما عاد، ورآه الحارس الشاب، وقف ودبّت به حيوية مفاجئة. لعل الحارس الشاب سئم من البرد والوحدة.

صباح الخير. .

صباح النور. .

وانحنى الحارس وحرّك النار التي همدت بجانبه والتي كان يتدفأ عليها، حرّك الرماد، وتبيّن أن بضع جمرات ما زالت تتوهّج، فوضع علبة الصفيح فوقها.

هل تشرب الشاي؟

كان الحارس الشاب قد غلى الشاي بعلبة الصفيح، الشاي الأسود الغامق المحلّى بكمية كبيرة من السكّر.

قال الحارس: لقد توقّفت العاصفة وكل شيء يعود إلى ما كان عليه.

نظر حمزة إلى البلدة. كان يستطيع أن يرى الشاطىء بوضوح.

كان يستطيع أن يرى أعمدة الكهرباء وما قذفه البحر على الشاطىء، وكان يستطيع أن يرى بعيداً السفينة الجانحة منذ سنوات على خليج السعديات. .

قدّم له الحارس علبة الصفيح. أمسكها بيده. لقد سقطت عنها الورقة التي توضح هويتها، ولعلها علبة فول أو بازلاء. . ولكنها دافئة على أي حال، وفيها الشاي الذي رغم كل شيء - ينعش القلب.

إلّا أن الصداع عاد يشقّ الرأس إلى نصفين. . الصداع والبرد وهدير الليلة الماضية. . وشعر حمزة بأن عليه أن يفعل شيئاً ما يقوى به على هذا الثقل الشديد الذي يسكن رأسه. أن يفعل شيئاً ما يُنهض به الروح، فقال للحارس الشاب فجأة:

- اسمع يا رضوان، ما رأيك في أن نشعل النار من جديد؟. .

أن نلمّ الكثير من الحطب ونشعل ناراً عظيمة يرتفع لهيبها إلى عنان السماء.

ولم ينتظر الحارس الشاب ليتأكّد إذا كانت الفكرة جديّة أم أنها من باب المزاح، فقد وضع البندقية جانباً، وهرع ليجمع قطع الحطب الجاف.

بعد ساعة كانت هناك كومة من الحطب تكفي لشيّ جمل ذي سنامين. أوقد حمزة النار، فبدأت تشتعل ببطء وسرعان ما اشتدّت، فشبّت وصارت عملاقة.

انتشرت رائحة الحطب المحترق برائحة الدخان المتصاعد، فابتعدا..

ابتعدا من شدة الحرارة..

وبدأ الدفء ينتشر، وبدأ الشبان النائمون يتململون في نومهم.

بدت عليهم علامات الشروع بالاستيقاظ. كأنهم يستيقظون بعد سبات طويل، بعد مبيت شتوي.

كأنهم بحّارة هدهّم التعب والجوع والنعاس وقسوة الأنواء، فبدأوا يستيقظون.

شعر حمزة بتحسّن. خفّ الصداع، وبدأ يدرك أن الفضاء هادىء ومضيء، أن الفضاء واسع كعادته، وأن الطبيعة عادت إلى حنوّها وطبعها الأنيس.

استيقظ أول من استيقظ حسن الأمجد. حسن الأسمر، الغوراني، الذي يستيقظ في العادة قبل الآخرين، فيجهّز الشاي وطعام الإفطار، ويشرع في الغناء.

يغني تلك الأغاني القديمة التي كان يـردِّدها في الأعـراس أيام كـان يعمل في قناة الغور الشرقية في الأردن. .

أيام طفولته القاسية وهو يعمل أشغالاً شاقة في (زور أبو عيسى) في تـل الأربعين. . التحق بـالثورة مبكـراً قبل حـرب حـزيـران، التحق بـالثورة أيـام العمل السرّي في شـمال الأردن، دخـل الثـورة قبـل أن يتزوَّج. قبل أن ينبت شعر ذقنه، شارك في تجربة الثورة من أربد حتى العرقوب، انتقل من حرّ الأغوار اللاهب إلى قمم العرقوب الثلجيـة. كيف استـطاع هذا الـرجل، ابن المنـاطق الحارّة أن يتكيّف مـع هـذه المناطق الباردة. . ؟

صباح الخير.

قال حسن الأمجد. فابتسم حمزة في وجهه. ابتسم ابتسامـة صافيـة كالندى فوق أوراق الليمون.

تساءل حسن الأمجد وهو يقترب من النار ويفرك يديه:

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

ـ كنت أتسـاءل بيني وبين نفسي كيف استـطعت وأنت ابن الأغوار الحارّة أن تتكيَّف مع هذه المناطق الباردة. . ؟

ضحك حسن الأمجد: لا تذكِّرني بـالليلة الماضيـة. . أنا شخصيـاً أعتقد أن التعذيب في جهنّم قد لا يكون بـالنار فقط، إذ يمكن أيضـاً أن يكـون بتحويـل الطقس فيهـا إلى مـا دون درجـة الصفـر أيضـاً.

ـ وضحكا مجدّداً، فأضاف حمزة:

ـ وتـذكّرت رحلتـك الـطويلة مـع الثـورة من إربـد حتى الرقـوب والدامور. من ذقن بلا شعر إلى شعر بدأ يغزوه الشيب بغزارة.

فقال حسن الأمجد بمرح:

ـ تقصد من البنطلون الفضفاض ذي الثنية إلى بنطلون الجينز الذي يلبس تحت الجلد.. ومن مغارة الفدائي بالأغوار التي تضاء بقنديل الكاز إلى المكاتب المكّيفة، المفروشة بالموكيت وورق الجدران في بيروت..

وكأن حمزة يعرف أن حسن الأمجد سوف يسترسل في النقد اللاذع، ويبدأ الصباح بجدل سياسي، فقاطعه دون أن يكفّ عن الابتسام:

ـ حسناً.. لا نريد أن نبدأ عملية رفع الأثقال في هذا الصباح الباكر.

صمت حسن الأمجد. وظلّت ألسنة اللهب تتّقد وتتطاول.

كان للنار لون وطعم ورائحة.

وأثناء ذلك أفاق أيضاً أحمد الشرقاوي، وهذا هو اسمه الحركي. شاب في العشرين. التحق بالثورة شبلاً منذ تسع سنوات وها هو الآن مكتمل الرجولة.

ها هو قد بدأ يحلق ذقنه، ويدخّن السجاير، ويطيل شعر رأسه حسب الموضة، وقد حضر في الماضي دورات عدّة في الجودو والكاراتيه، وهو يحبّ البطولة، والسفر، وإجازات أيام الآحاد، ويحبّ فتاة اسمها نبيلة تشتغل وراء الآلة الحاسبة في محل لبيع السندويش ببيروت.

وقد أفاق ذابل الوجه، شاحباً.. أزاح عن نفسه الغطاء، وهبّ واقفاً غير معترف بالتعب.

وعلى الفور بدأ يمارس رياضته الصباحية. خلع الكنزة الصوفية، وخلع القميص الكاكي، وخلع القميص الداخلي، وصار عاري الصدر.

ثم قفز في الهواء قفزة كاراتيه وهبط على قدميه. ثم أعاد الكرّة ثانية وثالثة. وقام بحركات غاضبة كأنه يصارع عدوّاً في حلبة أمامه، ثم أنهى رياضته بقفزة جريئة عبر خلالها من فوق اللهب والدخان.

صفّقوا له. فاقترب منهم وحيّاهم باختصار، ثم عاد إلى ملابسه التي خلعها فوضعها على جسده، وذهب إلى الخلاء.

وعندما عاد كان الآخرون قد استيقظوا.

جهاد، خالد كامل، أبو أيمن، جيفارا العراقي.

استيقظو وغسلوا وجوههم، وبدأوا يعدّون طعام الإفطار.

وقال جيفارا بصوت عال: لا يوجد عندنا خبز.

ـ حسناً.. قال حمزة، وقال مخاطباً أحمد الشرقاوي: هيّا معي أيها الفتى.. نقوم بجولة في البلدة ونحضر معنا الخبز من فرن الزهيري.

هبطا المنحدر.

حمزة يمشي رصيناً، يتدلّى المسدس من حزامه العريض، ويبرز كرشه الصغير، وقد نفر شعر ذقنه وشعر شاربه الكثّ.

أما أحمد الشرقاوي، فقد كان يعلّق البندقية على كتفه ويمشي مزهواً، حيوياً ومستعجلاً.

كانا يمرّان فوق أرض طينية رخوة. ومن بعيد كان الإعصار قد مرّ وترك آثاره هناك.

يعبس حمزة، كأنه يفكّر بصعوبة في قضايا معقّدة، وظلّ أحمد يصمت، ويتهيّب من الحديث بانتظار أن يصلا السفح حيث تقف السيارة العسكرية.

وحينما وصلا، اقترب حمزة وفتح الباب بصعوبة، فتح أحمد الباب المقابل، وركب إلى جانبه. . ثم انطلقت السيارة، باتجاه جسر الدامور.

وصلا الشارع الذي يحاذي البحر.

الأسماك الميّتة تتناثر هنا وهناك، وعلى الجانب الآخر توجد جثّة قطّة، توجد حجارة تدحرجت من المرتفعات وكاد بعضها يسدّ الطريق. وثمة جرّافة غاصت في الوحل بلا حراك ويبدو أن سائقها قد هجرها.

تحطّم بعض أعمدة الهاتف على الطريق، ويبدأ عمّال الكهرباء يحاولون. . .

هنا زجاج متطاير وهناك لا تزال جذور شجيرات لوت الرياح عنقها وأطارت شعرها الأخضر المتشابك.

واصلت السيارة طريقها. ما زالت آثار الإعصار تترك بصماتها.

وعلى الطرف الآخر المقابل للبحر توجد جثث بعض الخراف الناصعة. كأنها تنام متدثّرة بصوفها الأبيض وتموت ذلك الموت الجميل والفاجع.

أما في الحقول، فقد طارت أغطية البلاستيك، طارت بعيداً، وتكسّرت الأخشاب واقتلعت النباتات، وما لم يقتلع منها صار بلا مأوى. .

قال أحمد: ما أسعد البذور التي ما زالت تحت الأرض.

□ □ □

قال أحمد: كأنها آثار غارات جويّة لطائرات فانتوم.

دخلا البلدة. كان الناس يحاولون إصلاح ما أفسده الإعصار. كانت البلدة قد تحوّلت إلى ورشة، مثلما يحدث بعد القصف الاسرائيلي.. فسرعان ما تستأنف الحياة مسيرتها.

وأمام فرن الزهيري كان هناك طابور من الناس ينتظرون دورهم.

هبط أحمد من السيارة، ووقف في الطابور، بينما ظلّ حمزة داخل سيارته.

أشعل حمزة سيجارة، وفتح الراديو. الأخبار القلقة والتصريحات الغامضة، والتعليقات التي ليس لها معنى.

ما أصعب أن تفكّر بشراسة. أن تفكّر بعشر قضايا معقّدة في وقت واحد، أن تكون عدّة رجال في رجل واحد.

وبعد قليل مرّت السيارة الصفراء. سيارة (ألفا روميو) الصفراء.

أطلّ سعيد من وراء النافذة، ونادى..

فوجىء حمزة. فوجىء عندما أبصر أحمد الشرقاوي يخرج من الطابور ويقترب ويحادث سعيد. ربما بضع كلمات.

ثم استأنفت سيارة ألفا روميو سيرها، وعاد أحمد إلى الطابور.

ما الذي حدث؟ شيء كلمح البصر.

كيف حدث ذلك سريعاً؟

غضب حمزة. غضب. انفعل، كاد أن يفتح الباب وينزل ويصفع أحمد. غضب لكنه سرعان ما سيطر على غضبه.

أية وشائج تلك التي تربط أحمد بسعيد؟

طال الزمن قبل أن يأتي أحمد الشرقاوي وهو يحمل عدة ربطات من الخبز. مشت السيارة. أحمد يصمت وحمزة يكظم غيظه.

مشت السيارة عبر الشريط الساحلي. لم يقل أيّ منهما كلمة ما.

وعندما قطعا الجسر وانعطفا نحو التلّة، قال أحمد فجأة: لعلك غضبت لأنني تحدّثت مع سعيد.

لم يجب حمزة. ظلّت ملامحه جامدة.

وواصل أحمد الحديث: كنت قد طلبت مساعدته في الحصول على مساعدة زواج من المالية المركزية وقد أكّد لي أنه قد راجع لي بشأنها.

لم يتكلّم حمزة. وكان أحمد يعرف أن حمزة لن يقول كلمة واحدة، فلطالما حاول وحاول أن يأتي بالمساعدة المالية، ولكن عبثاً.. المساعدة المالية تحتاج إلى وساطة. لكي تأخذ مساعدة يجب أن يكون لك عم. يجب أن تكون متنفّذاً، وإذا كنت مقاتلاً شريفاً مثل حمزة شط البحر فهيهات!! كان حمزة مثقلاً. كان حزيناً. كان يفكّر عبثاً بإعادة ترتيب الأشياء.

- 9 -

منذ الفجر. منذ أن توقّفت العاصفة، انهمكت زليخة في العمل.

انهمكت في التصليح والترميم والكناسة وشطف الحوش، وإعادة بناء القن، وفي إصلاح ما يمكن إصلاحه من محتويات الحوض الذي زرعت به النعنع والعطرة وشجيرات الورد.

لملمت قطع الزجاج.. زجاج النافذة، ووضعت مكانها أكياس النايلون.

قدّمت العلف والماء للدجاجة.. إنها دجاجتها الأخيرة.. أما دجاجتها الثانية فقد أخذتها الرياح.

خبّأت دجاجتها الوحيدة تحت السرير. خبّأتها وأحاطتها بالدفء والرعاية. قضت ليلة مخيفة. لم يطرق بابها أحد. لم يسأل عنها أحد..

فرشت لنفسها فرشة الصوف التي تدّخرها وتحافظ عليها لأنها آخر أثر من جهاز عرسها. فرشتها ووضعت فوقها جلد الخروف الأبيض الذي تستعمله للصلاة ونامت باكراً متدثّرة بلحاف ثقيل.

كانت محزونة. ها هي دجاجة أخرى تذهب ولن تعود.

قرأت ما تحفظه من سور قصيرة.

وفي الخارج كان الصفير يزيد من الوحشة، وألسنة الرياح تشتعل

وتتـأجّج وظلّت تتخيّـل كيف أن الريـاح دفعت بالـدجاجـة على غـير هدى.

حـاولت أن تغمض جفنيها عنـدما دقّت الـرياح المجنـونة النـافذة الوحيدة بكلتا يديهـا فخافت لأول وهلة. انتـابها فـزع وارتجفت تحت اللحاف الثقيل.

أبدت النافذة مقاومة عنيدة لفترة من الوقت، لكن الرياح المجنونة تمكّنت في النهاية من فتح النافـذة بشدّة وعنف ودخلت الغـرفة مـوجة باردة من الهواء.

دخلت هوجاء تغلي وتفور..

صاحت الدجـاجة. صـاحت ورفرفت بجنـاحيها. فمـدّت زليخة يدها، وتناولتها ووضعتها تحت اللحاف بجانبها.

ظلّت الـريـاح تتـلاعب بخشب النـافـذة، ظـلّ الخشب يـرتـطم بالحائط، فتكسّر الزجاج، ومن ثم تحطّم خشب النافذة.

وبعد حين كانت الريـاح قد عبّـأت الغرفـة وكل مـا في البيت من فجوات. وبعد حـين اعتادت زليخـة على هـذا الجو البـارد. اعتادت على صفير الرياح فكأنها تنام في العراء.

وبعد حين سكن خوفها، ثم هدّها التعب والنعاس فنامت.

ورأت فيما يرى النائم زوجها أبـو كامـل. جاء بعـد غياب طـويل يسبقه صوت عكازه. دقّ الباب ففتحت له. دخل مهيباً رزيناً واسـع الصدر.

خلع الـطربوش، وخلع العبـاءة، ووضع مـا يحمل من حـاجيات جانباً، مدّ إليها يـده، فتناولت اليـد وانحنت لتقبيلها. سحب يـده،

ومسح بيده الأخرى على رأسها فبكت. بكت أمامه وجثت على ركبتيها.

جلس لكي يخلع الحذاء، ثم قال لها: ـ لقد سئمت الغربة والتجوال. تعبت من الرحيل المتواصل وقرّرت العودة إليك يا زليخة.

قرّرت أن أعود وأقبّل شعرك الأشيب وأقضي بقية عمري رهن إشارتك.

قرّرت أن أطلب منك الصفح والمغفرة. لقد تحمّلت الكثير وأنت تنتظرين عودتي أيتها المباركة، فليغفر الله لي لأنني هجرتك طوال هذه المدّة.

واستيقظت فجأة من نومها. استيقظت على صوت الريح. على الصفير والهدير والزمهرير... على الخواء والفراغ واليأس، تبدّد الحلم. ضاع. تلاشى.. فغطّت رأسها باللحاف من جديد، وانخرطت في بكاء مرّ. لماذا ذهب سريعاً. لماذا لم ينتظر حتى تقول له إنها بكت حتى لم يبقَ في عينيها دموع.

إن جراحها العميقة ليس لها شفاء. إن الحزن قد صنع أثلاماً في روحها المعذّبة، ثم نامت من جديد. ظلّت تتقلّب في الفراش. نامت نوماً مضطرباً. رأت فيما يرى النائم أضغاث أحلام. رأت مزقاً من الأيام الماضية. رأت كابوس حرب الطبيعة.

ثم انتاب أحلامها الهدوء. رأت بحيرات زرقاء، وحقولاً لا يحدّها حدود من الزهور الحمراء، ثم رأت دجاجتها الضائعة وقد حملتها الريح إلى الأعالي. رأتها وقد تحوّلت إلى طائر أخضر يرتفع في الفضاء ويرتفع حتى يغيب عن الأعين.

وعندما أتى الفجر أتى معه الهدوء وسكون الرياح. أتى معه الصمت.. نشيد الصمت الكامل، فقامت وغسلت وجهها. وانهمكت بعد ذلك في العمل..

انهمكت في التصليح والترميم والكناسة وشطف الحوش. أعادت بناء القن من جديد. أعادت بناءه بعناية ودقّة، ثم تفقّدت حوض النعنع والعطرة. سقتها الماء ومرّرت فوقها أصابعها.

ثم لملمت قطع الزجاج المتناثرة وقطع الخشب، وأغلقت النافذة بكيس من النايلون الرقيق.

شعرت فجأة بأسنانها تصطكّ من البرد، وكان الكانون قربها فارغاً.. فارغاً حتى من الرماد الذي بدّدته رياح الليلة الماضية.

فتّشت عبثاً عن قطعة خشب جافّة. كان الماء قد بلّل كل ما لديها من حطب، هكذا عادت إلى فراشها.

الآن ليس بوسعها أن تغلي ابريقاً من الشاي. لا تستطيع أن تمدّ أصابعها نافرة العروق وتلمس جمرة.

قفزت الدجاجة عن السرير، ومشت في أطراف الغرفة..

كأنها تبحث عن شيء مفقود. وتذكّرت زليخة الآن أنها لم تأكل منذ ظهر أمس.

تذكّرت أنه ليس لديها كسرة خبز للأكل.

تذكّرت الدفء والخبز الساخن.. فمن غير الزهيري يمكن أن تقصد؟

دخلت الفرن. كانت ترتجف. دخلت دون أن تقول شيئاً، فبادرها الزهيري قائلاً: صباح الخير يا زليخة.

قالت بصوت خافت: يصبّحك ويربّحك يا زهيري.

قالت ذلك وجلست على كرسي صغير من القش.

وبعد أن جلست تبيّنَ لها أنّ كلب الشايب يغفو على الأرض الدافئة، بينما تنتشر رائحة الطحين.

كان الزهيري منهمكاً في العمل، بينما أحمد البشكار يضع الخبز في كيس النايلون ويبيع الزبائن.

وكان الكلب قد لاذ بركن في الزاوية. كان يغفو هنا منذ الأمس أو منذ سنوات طويلة.

ولأمر ما نظرت إليه زليخة نظرة حنوّ.

ربما تذكّرت الشايب وأشفقت عليه.. ربما.. ربما..

ناولها البشكار كوب شاي. الشاي هنا مثل الماء، ابريق يذهب وابريق يأتي.. ربما الشاي هو الذي يجعل الدماء حارّة تسري في عروقهم.

بدأت تلمس الدفء بأصابعها. شربت وانتعشت.

ثم قرّرت الانتظار، فالجلوس هنا أفضل من البقاء في البيت البارد.

وأثناء ذلك فكّرت بالحقول، بالنساء اللواتي يعملن معها في تصفيف البرتقال بمركز البرّاد عند بطرس عون، بالسيّارات الكبيرة التي تقف منذ يومين منتظرة سكون العاصفة، بالخوف من المجهول، بالطمأنينة التي لا تأتي، بالأيام التي تتبارى في قتامتها ثم أغمضت. أطبقت جفنيها ونامت.. أو أخذتها سنة من النوم.

وأثناء ذلك رأت فيما يرى النائم زوجها أبو كامل. جاء يسبقه

صوت عكازه. جاء حزيناً.. مثخناً بوجع الغربة. وقبل أن يقول شيئاً، مال رأسها واستيقظت.

لماذا تذكره بعد كل هذه الأعوام الطويلة؟

سنوات طويلة مرّت على غيابه. لم تعد تعرف كم عددها، عندما ذهب وهجرها كانت صبيّة. وها هو شعرها قد أصبح أبيض تماماً. أين ذهب ولماذا وكيف..؟

في البداية حقدت عليه. كرهته. تمنّت له الموت البشع. لكن مع مرور الأيام بدأت تشفق عليه. بدأت تحزن.

صارت تتمنّى عودته سالماً، وأبلغت أولاد الحارة بأن يراقبوا لها الشارع. اعتقدت طويلاً أنه سيأتي ذات يوم يسبقه عكازه. أبلغت أولاد الحارة أن من يراه قادماً.. أن من يأتي لها بالبشارة فسوف تعطيه الحلاوة.

وصار الأولاد، شبّاناً، ولم يعد ثمة من يراقب الشارع.. ومع الأيام صار نسياً منسيّاً. تراكمت غبار الأيام على الذاكرة، وغاب مع من غاب من الأحباب والأهل ومهج القلب.

لماذا يعود إلى أحلامها بعد كل هذه الأعوام الطويلة..
لماذا.. لماذا.. لماذا..؟

خرجت زليخة من الفرن وهي تحمل ربطة خبز.

خرج الكلب العجوز وراءها. نفض عن نفسه الغبار وذرّات الطحين، خرج يبصبص بذنبه، ويشمّ رائحة الأرض..

عندما خرج من باب الفرن صدمه الضوء وسطوع الفضاء.

غشيت عيناه فترة من الوقت. مشى ببطء حتى أنه أضاع آثار خطوات زليخة.

ظلّ يمشي ويشمّ الأرض.

كان كلباً عجوزاً لا يجرؤ على الاشتباك مع الكلاب الأخرى، ولا يقوى على الدفاع عن نفسه، وحتى إذا ما شعر بالخطر فإنه لا يستطيع أن يرفع عقيرته بالنباح.

- 10 -

كانت الرياح تشنّ هجومها الأخير عند الهزيع الأخير من الليل. وكان الشايب ساهراً ولم يغمض له جفن كالعادة، نفدت سجائره، ونفد مازوت المدفأة، وصارت الغرفة شديدة البرودة.

صارت مثل الثلاّجات الكبيرة التي تحفظ فيها الفواكه في برّاد بطرس عون، فلفّ نفسه بالبطانية جيّداً. لفّ نفسه بالصمت المثخن، والوحدة القاتمة.

في الخارج ظلّت الدنيا تشتعل بالريح والجنون، بالصفير والهدير الجارف.

في الخارج كان غضب الله. كان سخط الرب. كانت لعنة الحيّ القيّوم القدّوس. المهيمن. العزيز. الجبّار. المتكبّر. البارىء..

أما في داخلك أيها الشايب فالصمت والحزن. السكينة والحزن الجارح، لا أحد سواك في الغرفة، حتى الكلب الهرم خرج ولم يعد.

البرد يجرح عظامك في هذا الطقس. في هذا الزمهرير.. الصرصر.. القرقر.. الدردر.. العاتي.

وما أصعب أن تموت وحيداً. أن يهاجمك ملاك الموت، ويتوقّف قلبك فجأة، وتبقى ملفوفاً بالبطانية. تسقط على جنبك الأيمن، ينساك الناس يوماً وليلة ولا يأتون إلاّ بعد أن يصبح لجسدك رائحة. تموت غريباً مثل ذلك الرجل الذي غسلته بيديك.

لماذا تهجم عليك الكآبة. والاحساس الحاد بالموت..

لقد وهن العظم. وعزَّ النوم منذ زمن طويل، ووهن البصر، واشتعل الرأس والقلب والمرارة والبنكرياس والسكري والضغط العالي..

أغمض جفنيه. هل تحلم بغفوة أيها الشايب الملقى هنا كحجر؟

هل تحلم بنوم يشبه نوم الجذور في باطن الأرض؟

هل تحلم بأن تزورك في المنام الحاجة فاطمة؟ تأتي متسلِّلة على رؤوس أصابعها لكيلا توقظك، تجهِّز لك ابريق الوضوء، وقهوة الصباح وطعام الإفطار من العسل.. من الشهد الصافي.

لماذا تمرّ بخاطره ذكرى تلك المرأة الوفيّة. المرأة الفلاَّحة التي تستيقظ قبل صياح الديك. التي تشتغل في الحقل. وتربيّ الدجاج في البيت، وتطبخ وتعجن وتخبز، وفي آخر الليل تنضو ثوبها الأسود، وتندسّ إلى جانبك بجسدها الأبيض الطري. تنام بجانبك في العتمة وتلتصق بك، فيضيء الكون وتتورَّد الأشياء، ويصبح للمساء طعم التفّاح؟.

وفي الصباح الباكر، قبل آذان الفجر، تسخُن لك الماء لتستحمّ حتى تذهب إلى المسجد طاهراً.

وكانت امرأة طاهرة، نظيفة القلب والروح.. تفيض البركة من كفّيها. على شفتيها صلوات الشكر على النعمة حتى في أيام الشدّة.. تحبّ الناس. بيتنا لم يكن يخلو من الضيوف..

هي سيّدة البيت وأحياناً هي رجل البيت.

لا تنسى أحداً من الأقارب. لا تنسى العائلات المستورة، تعطي

مما يعطينا الله بسخاء. تشكر الله على نعمه، وتصوم رمضان وتطعم المساكين. وفي المناسبات الدينية تقوم بالواجب وبما تتطلّبه العادات والتقاليد. وكانت تهتمّ بهندامي لكي أظلّ ـ كما كانت تقول ـ زينة الرجال.

لم تنجب لي أطفالاً. لم أتزوّج عليها. وعندما كان الحزن يعصف بقلبها لأنها عاقر لا تنجب، كنت أخفّف عنها، وأقول لها إن الخصب ليس بالحمل والولادة، الخصب في شخصيتها الكريمة، وأخلاقها النبيلة.. الخصب في كرمها وعنفوانها وجمال جسدها.

لماذا جاءها الموت باكراً. لماذا أخذها فجأة ذات ليلة، بعد أن استحمّت ومشّطت شعرها، حيث أصبح الصباح فإذا بقلبها يكفّ عن الخفقان؟؟

منذ ذلك اليوم وأنا وحيد..

سنوات وسنوات وسنوات مرّت وفقدت القدرة على النوم. صرت أحلم بغفوة. بقيلولة. صرت أحلم بالنعاس الصعب، والوسن الذي لا يأتي.

ولكن منذ أن جئت تل الزعتر أصبحت الثورة أسرتي.

صار الشباب أهلي وعشيرتي.. صارت البارودة تؤنس روحي.

ظلّت اليقظة ترهقني. ظلّت اليقظة تريحني.

فلماذا تتسلّل ذكراك يا حاجة فاطمة، يا زوجتي الوفية الطيّبة إلى قلبي في هذه الليلة القاسية؟؟

□ □ □

عندما توقّفت العاصفة وهدأ الإعصار ومرّت ساعة هدوء، حاول الشايب أن يتمدّد في الفراش.

أن يسترخي ويحدِّق بسقف الغرفة.

حاول أن يسدل الستار على كل نوافذ الذاكرة الهرمة.

فكِّر أولاً بحمزة. وفكِّر بالمواقع المتاخمة للبحر.

وخطر على باله الزهيري وأبو العسل، وخطر على باله آخرون لم يخطروا على بال من قبل.

انتشر النهار في الغرفة، غرفته المتينة التي لم تستطع الرياح خلع نافذتها أو بابها.

صار للغرفة فضاء. ما أجمل الضياء وكم هو أنيس للقلب!

شعر بخربشة على الباب. عرف أن الكلب يعلن عن وصوله. قام وفتح الباب فدخل الكلب العجوز. دخل مطأطىء الرأس، كأنه يعلن عن خجله.

كأنه يشعر بتأنيب الضمير.

مشى إلى ركنه في الزاوية وأقعى على ذيله.

كان القذى يلتفّ حول حديقته. كان ثمة دموع في مآقيه. كان يعود مثل الابن الضال. مثل مسافر يؤوب من سفر فاشل.

حدَّق به الشايب بتعاطف ورأفة.

يا لهذا الكلب العجوز الذي لم يعد يصلح لشيء!

يا لهذا الكلب الذي وهن وضعف ولم يعد له حول ولا قوة!

يا لهذا الكلب الذي يحتاج إلى رعاية!

كلانا وحيد يا صاحبي...

ولا يحنّ على الغصن إلا قشرته.

فتعال وخذ دفء القلب، وليرأف بك الله في شيخوختك المحزنة!

- 11 -

أمضيت العمر تبحث عن حصانك الهرم. كان يغيب ويغيب ثم يعود. تقلق عليه برهة ثم تنسى. يعود إلى مكانه تحت النافذة، أو تحت السقيفة. يسرح في البراري باحثاً عن وجبة خضراء. يعود وقد غسل الندى سنابكه، بينما بقايا الأعشاب الخضراء تظهر فيما بين أسنانه القواطع.

عندما هبّت العاصفة البحرية الغادرة.. العاصفة التي اقتلعت جذور القلب، ترك مذوده، وانطلق يعدو..

ركض وراء البريق الأخّاذ. وراء الاضاءات الغامضة، ووراء اللمعان الخاطف.. رعدت السماء، فانطلق على غير هدى. ربما توقّف لحظة. ربما وقف على قائمتيه الخلفيّتين وصهل ذلك الصهيل الجنوني. الصهيل الذي يعلن عن حبّه للحياة، ربما تألّقت عيناه، بذلك المزيج الطاغي من الرعب والدهشة، فودّ لو أنه يستطيع أن يمتطي الريح أو يقفز في الفراغ اللامتناهي.

لكنه لم يقفز، ولو فعلها لكان قد استقرّ في قاع الوادي.

ظللت تبحث عنه طوال تلك الليلة. ظللت تفتّش عنه في البيارات وعند حواف الوادي. عند النهر. عند التلال والوهاد، وعند الجرف.

وعندما عدت بدونه في آخر الليل، وفتحت لك الباب أمّ العيال،

كانت الرياح الصرصر العاتية قد أكملت سيطرتها حتى على الفجوات الصغيرة.

نام إلى جانبها. التصق بها. كانت دافئة. ولم يكن ثمة سوى انتظام تنفّس الأولاد هنا وهناك. كانوا مستغرقين في النوم.

طوّقته زوجته بذراعيها. ما الذي يجعل الحياة تدبّ في جسد هذه المرأة التي لم تستيقظ الرغبة في أعماقها منذ زمن طويل؟

كم قتلتني الحاجة إلى الدفء في تلك اللحظة!

كم حاولت أن أكون الحصان الذي يقف على قائمتيه الخلفيّتين ويصهل صهيل الحياة، إلا أنني اكتشفت أنني عجوز بلا حول ولا قوّة.. كأنما جرّدني الإعصار من كل طاقة. ورغم ذلك فإن المرأة لم تكفّ عن تطويق جسدي بذراعيها.. وعندما طال وطال صمتنا سألتني: أين الحصان؟

سألت كأنها تسأل عن أحد أولادها.

أجبتها أنني لم أجده.

قالت: يا أبو العسل كيف يغمض لك جفن وحصانك ضائع في هذه الليلة الرهيبة.. ماذا تفعل الدواب البكماء في مثل هذا الجو الجارح؟.

إنها لا تقوى حتى على البكاء ولا تستطيع أن تستغيث..

وفي تلك الليلة لم يغمض لي جفن. نامت المرأة وهي تشبك ذراعيها حول عنقي ولكنني لم أنم. ظلّت أفكاري تتطاير مثل الأوراق في مهبّ الريح، مثل ريش العصافير التي لا تطير وسط العاصفة.

وحينما أصبح الصباح، لبست كيس الخيش على رأسي واندفعت أشقّ طريقي عكس تيّار الريح الذي بدأت تتكسّر حدّته.

شققت طريقي وسط الريح كأنني أسير فوق الأسلاك الشائكة. كأنني أسير فوق قطع مدبّبة من شظايا الزجاج.

شققت طريقي وسط الريح التي تشدّني إلى الخلف.
مشيت كأنني أجرّ ورائي حجر طاحون ثقيلاً.

تعبت. سلخ الصقيع جلدي، فعرجت على فرن الزهيري. فرن الزهيري دافىء، روح الزهيري دافئة. الزهيري ملك الدفء. كأنه ولد أمام بيدر من النار. كأنه ولد أمام قبس من نور الله.. الطيبة والدماثة وقدرته على ارتجال الزجل وحبّ الناس.. كان هناك الكثيرون من الذين هربوا من البرد الجارح إلى رحابه الدافئة. صحيح أن فرنه ضيّق، لكن للدفء جلال صحون المساجد وروعة رخام أعمدتها.

جاءت السنيورة، خبز الزهيري رغيفاً. تركه يحمرّ في بيت النار، تركه يتحمّص على مهل. شوى رغيف الخبز وأمسكه بأصابعه وقدّمه إلى السنيورة. شممت رائحة الخبز التي ليس لها شبيه. كان هنالك كلب جائع. كنا جميعاً جائعين. أكلنا جميعاً من الرغيف الساخن.

أقول لكم. عندما كنت ألوك لقمة الخبز تذكّرت حصاني الهرم. كنت أشعر أنه الآن ربما يكون في مكان ما يحتضر بعيداً عمّن ينقّط في فمه نقطة ماء.

ولذلك قمت على الفور. وضعت كيس الخيش على رأسي وخرجت إلى البراري.

أين يكون يا ترى..؟

غامرت واندفعت نحو البراري. نحو حقول الرياح. نحو الغمام البرد والأذى..

هبطت منخفضات وصعدت مرتفعات. فقدت المعرفة بالاتجاهات. سرت على غير هدى. صرت أتلمّس الطريق كالأعمى. أشعر أحياناً أنني مقبل على السقوط في حفرة فأتوقّف. أتردّد لحظات. أشعر أن الأرض رخوة تحت قدمي. إنها قد تنشقّ فجأة وتبتلعني. كانت الدنيا نهاراً.. لكن الريح الشرسة كانت تحوّل النهار إلى ما هو أحلك من الليل. كانت الرياح الشرسة تحمل معها ذرّات ناعمة من رمال الشاطىء فتنثر مسحوق الرمال فوق الرأس وعلى رموش العينين وعلى حواف الأذنين.

كنت آنذاك أحلم بشمس تشرق فجأة. شمس تسطع على حين غرّة، تضيء المكان. يتنفّس تحت إشراقتها الإنسان والدواب والحشرات.

لكنك لا تستطيع أن تحلم أكثر من لحظة.. أكثر من لحيظة..

ففي هذا السهل المنبسط أو المنحدر لا أدري، تجد نفسك في ميدان رماية الريح وذرّات الرمل والخوف من المجهول..

كم هو مرعب أن تجد نفسك فجأة في مأزق!

ليس هناك من يغيثك. ليس هناك من يسمعك مهما علا صوتك. ما أصعب أن تموت في هذا النهار الكرب!

ما أصعب أن تموت لسبب أو لآخر فلا يجدون جثّتك إلا بعد أيام وقد تعفّنت!

خطرت ببالي كل الأفكار المرهقة. كل الأفكار الشرّيرة. وفي لحظة من اللحظات هجم عليّ خوف ثقيل. في لحظة من اللحظات قرّرت أن أعود من حيث أتيت. وعند ذلك لم أعد أعرف الاتجاه الذي يتعينّ عليّ أن أسلكه.

بحثت ملء البصر عن علامة أعرفها، عن شاخص أستطيع من خلاله معرفة المكان، وقد استطعت أن أرى من بعيد بيتاً على رأس التلّة المقابلة.

مشيت ومشيت طويلاً، فكأنني أرجع إلى الخلف..
أنا أقترب والبيت يبتعد.

ظللت أخوض في بحر العنف. في بحر الرمال والهواء الذي فقد صوابه، وتمكّنت أخيراً من الوصول إلى مشارف البيت. عندها عرفت أنني أمام بيت كبير في الضواحي، ويا للمفاجأة فقد رأيت هناك.. بعيداً بين الأشجار السيارة الصفراء، سيارة (ألفا روميو) التي تتسع لراكبين، وفي مكان آخر كانت هنالك سيارة عسكرية... تساءلت بيني وبين نفسي ما الذي جاء بجماعة الأمن العسكري إلى هذا المكان؟

كنت أعرف أنها سيارة سعيد.

توقّفت.. هل أقترب أكثر؟ كان هنالك حارس يقف وينظر حواليه بعصبية. كان يبدو مضطرباً. هل هو مضطرب بسبب الطقس الرديء أم لأمر ما؟

اختبأت بين الأشجار. الأشجار التي كانت أغصانها تترنّح تحت وطأة اندفاعة الرياح، وقد شعرت على الفور بأن شيئاً غامضاً يجري داخل المكاتب..

وبعد قليل خرج عدد من الرجال، يحملون بأيديهم حقائب سوداء صغيرة. هرعوا إلى السيارتين، ولحق بهم الشاب الذي كان يحرس المكان.

انطلقوا سريعاً، وبعد لحظات كانوا قد اختفوا.

أحسست أن هناك عملية سطو على المكان.

بدأت أرتجف. تسلّل الخوف من قمّة رأسي حتى أخمص قدمي.

وعند ذلك، أية قوّة تلك التي دفعتني للعودة من حيث أتيت. أية قوّة تلك التي جعلتني أغذ السير وأمشي غريزياً عائداً إلى منزلي؟

عندما وصلت كان العرق يغمرني. كان العرق يتصبّب من جبيني. كنت أرتجف . . . ويا للمفاجأة!

كان الحصان الهرم قد عاد. أين كان وكيف جاء؟

كان كسيراً مثخناً هزيلاً يعلو جسمه الغبار وذرّات الرمال. كان العرق أيضاً يغمر رقبته وتسيل الدموع من عينيه.

من منا كان الأبكم. من منا الذي كان قلبه يبكي؟

من منا الذي أشاح بوجهه عن صاحبه لكي لا ينفجر بالنشيج؟

- 12 -

عادوا إلى موقعهم المتاخم للبحر.
حملوا أسلحتهم عند الفجر وركّزوا المدفع من جديد.
حملوا صناديق الذخيرة. حملوا التعب العابر، الارهاق الآني.
حملوا مرارة اللحظة، وحلاوة الحلم، وحملوا ما لا حصر له من التفاصيل الشخصية.

جلس حمزة على طرف الصخرة، وصوّب بصره نحو البحر.

البحر الهادىء في هذا الفجر. البحر الذي خلع عن نفسه دروعه وأعاد السيوف والخناجر إلى أغمادها.

عاد له لونه الأزرق الصافي، وعادت طيور النورس تطير في فضائه أو تحطّ على صفحته الرقراقة.

إنهم يشعرون بالوحشة بعد أن صمتت الطبيعة على حين غرّة.

ها هو حسن الأمجد يغنّي بصوته العذب تلك الأغاني الفلاّحية الحزينة كأنه يحنّ إلى زوجته وأولاده. كأنه حمامة تهدل معلنة عن أعلى درجات الحزن. وجيفارا العراقي أيضاً يدندن، ويرتسم على صفحة وجهه شرود، وترحل ذاكرته بعيداً، ربما إلى البصرة، ربما يتشوّق للأهل والنخيل والشمس الدافئة.

أما الآخرون، جهاد وخالد كامل، وأبو أيمن ورضوان، فقد كانوا

يغسلون ثيـابهم وينشرونها عـلى الصخـور المسنّنـة بـانتـظار بـزوغ الشمس.

وأما أحمد الشرقاوي فقد ذهب لكي يحضر التموين، ركب السيارة العسكرية وذهب ولما يعد.

توقّف حسن الأمجد عن الغناء، وقال مخاطباً حمزة:

ـ منذ ساعة وأنت تحدِّق بهذا البحر، أين سرحت؟

(هل أتكلّم؟ هل تريد أن تعرف ما يـدور في أعماقي؟ مـاذا يتعينَّ عليه أن يقول؟ هل يقول إن الأعشاب تخضرّ في أعماقـه، وإنه يشعـر بأن قلبه هذا الصباح مثل فراشة تصفِّق بجناحيها في ربيع مبكر؟)

وعندما لم يتلقَّ حسن الأمجد جواباً عاود الغناء.

ما أوسع صدر البحر هذا الصباح. كم هي مترامية أطرافه.

قام حمزة. استأذن. مشى. هبط إلى الشاطىء. سار على الـرمال. الرمال الناعمة المغسولة جيِّداً.

كان الصمت جميلاً. وكان الشاطىء يمتدّ ويتعرَّج.

كانت الموسيقى تدقّ جدران قلبـه، يشعر حـمزة كأنـه ولد في هـذا المكان. يشعر بروعة المكـان وعذوبتـه. يشعر عنـدما يقف أمـام هذا الشـاطىء ويحرسـه، كأنـه يحرس بستـان قلبه. وكـأنه يحـرس حدائق فكرته.

وتذكَّر حمزة أنه لم يزر الشايب أثناء العاصفة. تذكَّر أنه يتعينَّ عليه أن يزور أبو العسل. تذكَّر زليخة، وتـذكَّر آخـرين، فقرَّر أن يـذهب إلى البلدة. لبس سـترته العسكـرية وحمـل بندقيتـه عـلى كتفـه وذهب ماشياً.

جاء حمزة. جاء شط البحر. مثقلاً بالكرى والهواء النقي.
جاء من لا يخاف. صديق الحشائش والموج.
جاء فجراً ونجم الصباح تأرجح بين الظهور وبين الأفول.

يحمل بندقيته. يجمع الشوق في قلبه. يضحك للموج، للطفل وللمرأة العاملة.

يحمل البندقية.. يا للشموخ!!
مثل حامل فأس.
ومثل حارث ثلم.
ومثل كاتب سطر.
ومثل شموخ الحمام الذي طار فطاوعته الريح.

جاء شط البحر. جاء بعد ليل طويل، وظلّ ممتلئاً بالصحو والانتباه.

يحرس الشط. يحرس بستان قلبه وحدائق فكرته، ويستقبل مطلع النور. مطلع الفجر. يستقبل اللحظة الناصعة.

يعود خفيفاً. مثقلاً ببعض الكرى. وبعض الندى، ورائحة البحر.

وأنّى مشى، ونقّل خطوته.. تسير بساتين أحلامه.
وتلال واقعه الصعب والمر أو السهل والحلو.

وعند التعب الصعب والعطش الصعب ترضيه طيبة أهل المخيّم...

عذوبة عزوته. ويرضيه ينبوع طيبتهم، وصدق نوايا السنونو تحت سقوف البيوت.

يلقي عليهم تحيته.

يردّون بما يشبه الخبز والملح والفضة الخالصة.

يسعـون للرزق. يسمع فيهم صهيـل الخيول.. هـديـل الحـمام. ويبصر نظرتهم للسماء. يبصر هذا التوكّـل، ورضا الـوالدين وانتـظار الفرج.

- 13 -

يفتح الشايب نوافذه للشمس الطريّة. الشمس التي بزغت مثل زهرة أولى تبرعم على غصن شجرة لوز.

يفتح الشايب نوافذه للشمس التي تطلّ بعد غياب الشمس الفاترة التي تعيد للحياة بعض الاعتبار.

يفتح الشايب نوافذه وينشر البطانيات، ويدخّن، بوجه حليق، وبروح عالية، وغير بعيد ينام الكلب، يغفو كسولاً خاملاً تحت شمس غضّة.

دخل حمزة يحمل بندقيته، مثل حامل فأس أو مثل غارس غرس أو مثل حارث ثلم. دخل حمزة حيوياً، مغسولاً، أبيض القلب. وطرح السلام.

فتح له الشايب ذراعيه، وعانقه بحرارة. كأنه غاب عنه عاماً أو بعض عام. أنت شيخ قوي... كنت متأكّداً من أنك ستجتاز العاصفة بسلام.

وكيف الشباب.. لقد كنت قلقاً عليكم.

تحادثنا بحرارة وبحيوية. حكى حمزة عن المدفع. عن حسن الأجد.

عن أحمد الشرقاوي. عن الرياح الشرسة.. عن قمم الصخور المسنّنة.

وحكى الشايب عن الرياح التي تأكل بعضها بعضاً، وعن كلبه الذي فرّ إلى مكان دافىء، وعن زليخة التي ما زالت حيّة ترزق، وعن أبو العسل الذي أمضى الوقت كله يبحث عن حصانه.

والزهيري.. كيف حاله؟

الزهيري ملك الدفء.. لم يتوقّف عن العمل، وظلّ يزوّد الناس بالخبز الساخن.

تحدّثا طويلاً، وتناولا معاً طعام الإفطار، وظلّ الكلب الهرم يغفو ولا تصدر عنه حركة واحدة.

تثاءب حمزة، أحسّ بالنعاس. تمدّد وأسند رأسه إلى المسند، وما هي إلا لحظات حتى نام في هدوء، وآنَ ذاك وضع الشايب عليه غطاء الصوف وخرج يتمشى.

أفاق حمزة على طرق شديد. فرك عينيه ونظر إلى ساعته.

ازداد الطرق، فهبَّ واقفاً. كان هناك من طال انتظاره وراء الباب. أين الشايب يا ترى؟

فتح الباب، أطلّ وجه امرأة شابة وإلى جانبها طفل صغير.
أطلّ وجهها من وراء الباب.

حدّق بها لحظات منتظراً أن تفصح عما تريد، وعندما لم تقل شيئاً، أفسح لها وقال تفضّلي.

كان يعرف أن باب الشايب يظلّ مفتوحاً أمام جميع أولئك الذين تغلق في وجوههم الأبواب، فنظر إلى ساعته وقال:

ـ الشايب خرج منذ زمن ولن يطول غيابه.

جلست على البساط وجلس الطفل إلى جانبها.

ملابسها محتشمة ويلفّ شعرها إشارب بنّي بلون عينيها الساكنتين. امرأة ثلاثينيّة لا تخلو من الوسامة.

لم يدر حمزة كيف يتصرّف. غسل وجهه ونظر لنفسه في المرآة، ثم جلس على طرف المسند تحت وطأة إحساس بالارتباك. ماذا يقول.. لا يدري. ظلّت صامتة. هل يسألها من تكون وماذا تريد؟

لم يكن باستطاعته أن ينظر إلى وجهها، وأحسّ بأنها تسترق النظر إليه..

كأنها تحاول أن تحدس عمّن يكون وماذا يفعل هنا.ولعلّ الطفل قد ضجر فقام يلعب أمام الباب دون أن يستأذن، فلاحقه صوتها: لا تبتعد..

والآن ازداد الاحساس بالحرج، ولعلّ الصمت طال وطال وأصبح من غير الممكن مواصلة هذا الصمت. فقال أخيراً: لم يسبق لي أن رأيتك، هل أنت من سكان الدامور؟

ويبدو أنها كانت أيضاً تنتظر أن يبدأ، فأجابت على الفور:

ـ أنا قادمة من مخيّم عين الحلوة وهذا الطفل هو ابني..

وانتظرت قليلاً قبل أن تواصل:

ـ وأنت.. ألست الأخ حمزة؟

نظر إليها بفضول:

ـ كيف عرفت أنني حمزة؟

كانت امرأة فلّاحة.. امرأة جريئة..

ـ أخبرني الشايب عنك، لقد علمت أنك فعلت عملاً كبيراً حين أوعزت بدفن جثة زوجي... هل تتذكّر الجثة التي قمتم بدفنها؟

دهش حمزة. تذكّر سمّاعة الإعلام الجماهيري وسيارة الاسعاف، وجثمان الرجل الذي ينام أو يغفو. .

ـ وهل كان ذلك الرجل هو زوجك؟

هزّت رأسها، وأضافت:

ـ وقد شرح لي الشايب كل ما حدث. .

كانت قد تجاوزت الحزن الحاد، لكن صفاء وجهها اعتكر، فاحتقن، وواصلت الحديث:

ـ ولن أنسى شهامتك. .

لم يكن يتخيَّل أنها أرملة، فهي لا تلبس الملابس السوداء، وتبدو أصغر من أن تكون امرأة قد ترمّلت.

فقال: أنا آسف لما حدث له، والأعمار بيد الله.

زفرت بحرقة.

ومرّت بعد ذلك لحظات طويلة. انتبه إلى أنها تنظر في أطراف الغرفة، كأنما تنتقد هذه الفوضى التي تلفّ المكان.

ثم قامت فجأة، وأخذت تلملم الشراشف والقمصان الوسخة والمناشف، وحملت الكومة واستأذنت، ثم ذهبت إلى المطبخ. (عرف أنها ذهبت لغسل الملابس).

بقي وحده، وظلّ يسمع وقع خطواتها، وقرقعة الأوعية ووعاء الغسيل.

ظلّ يسمع قرع طبول خفية يأتي من مكان بعيد. .

من مكان ناء في أعماقه.

فقرّر أن يخرج. فتح الباب وخرج. .

في الزقاق، كان الطفل يجلس على حجر ويحزن كما يبدو على طريقته الخاصة. لم يكن يلهو كما توقّع. لم يكن يلعب البنانير أو يدحرج إطاراً من السلك الرفيع أو يعبث مع قطّة أو. .

كان يجلس وينظر إلى مكان ما في السماء.

اقترب منه ومسح شعره.

ـ الا تأتي معي إلى السوق؟

للطفل وجه ترتسم عليه آلام رجل ناضج، لكنه جبّار، ويستطيع أن يتناسى.

أجابه الطفل: بلى. . ولكن يجب أن أخبر أمي.

ـ اذهب وأخبرها.

ذهب الطفل وعاد، وأطلّت المرأة من وراء الباب. يداها تغيبان في قفّاز من فقاقيع الصابون، ووجهها شديد الحمرة.

ـ لا تعذّب عمّك يا ولد.

قالت ذلك بإلفة. قالت ذلك بلهجة فلسطينية عذبة.

مشى الطفل إلى جانبه.

ـ ما اسمك؟

ـ اسمي سامي.

يمشي الطفل برزانة ووقار. . يمشي وينظر إلى الأرض. . يمشي وينظر إلى السماء.

ـ كيف تعيشون في عين الحلوة؟

ـ أمي تشتغل في البساتين. . تقطف الليمون والمندلينا.

ـ هل تذهب إلى المدرسة؟
ـ أجل. .
ـ في أي سنة. .
ـ في الصف الثاني. .
ـ هل تحبّ الرسم.
ـ أجل. .
ـ وما ترسم؟
ـ أرسم قطارات وأعلاماً ملوّنة. .
ـ هل تحبّ القطار؟ .
ـ أحبّ صفيره
ـ وماذا أيضاً؟
ـ أحبّ أن أرى المدن البعيدة التي يمرّ بها القطار. .

جاء هدير طائرات حربية، لعلّها جاءت تستطلع، وغداً أو بعده تعود لكي تقصف المواقع التي صوّرتها.

ـ هل ترسم الطائرات؟
نفى الطفل وقال إنه لا يتقن رسم الطائرات.
غاب الهدير، وواصلا السير نحو السوق.

هل نشتري الخضار؟ عبّأ في الأكياس البطاطا والبندورة والبقدونس وحزمة من الفجل وفي كيس آخر البرتقال والتفاح.

ـ هل تستطيع أن تساعدني؟

في طريق العودة كان الطفل قد أصبح أليفاً. كان قد تحرّر من حزنه وصمته.

تسلَّل إليه المرح. بدأ يحجل وينطّ على رجل واحدة. ثم أخذ ينشد.. أو يغني الأغاني المدرسية العذبة..

وعندما اقتربا. كانا يغنيان معاً..

عند الباب استقبلهما الكلب الهرم. استقبلهما هاشّاً باشّاً متجاوباً مع مرحهما.

فتح لهما الشايب الباب. كانت المرأة وراءه تنشر الملابس على حبل الغسيل.

اقترب الطفل من أمّه، وجهها متورِّد، كانت تعقص شعرها إلى الخلف، وتربطه بالايشارب، فيبدو وجهها صافياً وجذّاباً.

احتضنت المرأة طفلها وقبّلته. ثم رفعت رأسها واقتربت وتناولت الأكياس.

قال الشايب: تفضّل..

نظر حمزة إلى ساعته..

ـ يجب أن أعود

ألحّ الشايب

ـ تفضّل.. اشرب فنجان قهوة.

نظر حمزة مرّة ثانية الى ساعته وقال:

ـ يجب أن أعود.. لقد تأخّرت على الشباب..

استدار حمزة مسرعاً، وكان يشعر بأن نظراتهم تتابعه فأحسّ برغبة جارفة في أن يتلفّت خلفه.

- 14 -

عاد أحمد الشرقاوي. جاء في سيارة (اللاند روفر) قادماً بالسرعة القصوى، مثيراً زوبعة من الغبار.

جاء يحمل التموين الطازج وكمية من المعلّبات التي توزّع كتموين شهري.

توقّف، وهبط من السيارة وطرح عليهم السلام.
بادره حسن الأمجد: لماذا تسوق بهذه السرعة كالمشعوط؟
وعندما اقترب خطوات، قال له حمزة:
ـ لماذا كل هذه السرعة يا أحمد.

قالها بكل هدوء. قالها وهو يدرك أنه أمام شاب يمرّ في مرحلة الاندفاع والتفجير.

خلع أحمد الشرقاوي الطاقية عن رأسه، واعتذر بكلمات موجزة، وجلس مطرقاً.

كان هنالك ضيف من الحزب القومي، لذلك سرعان ما استأنف حمزة الحوار مع ضيفه، وبعد أن انصرف الضيف، اقترب أحمد الشرقاوي وخاطب حمزة.

جاءت من بيروت مفرزة من اللجنة الأمنية للقوات المشتركة للتحقيق في عملية سطو تمّت على منزل الخواجا ألبير في الضواحي..

تساءل حمزة: من قال لك؟

أجاب أحمد: كنت في قيادة القوات وشاهدت السيارات والكلاب البوليسية.

ـ وماذا سمعت. أيضاً.

يقولون بأن عملية السطو تُمت أثناء العاصفة البحرية. . وأن المسروقات من النقد والمجوهرات تقدّر بنصف مليون ليرة.

كان حسن الأمجد يستمع، فاقترب بدافع الفضول، وسأل باهتمام: وهل اكتشفوا السارق؟

قال أحمد الشرقاوي: لا أعتقد.

وعند ذلك انفعل حسن الأمجد، وشتم كل أولئك الذين يفسدون ويسيئون للناس. شتم كل العصابات التي تحتمي بالأجهزة، وكل الذين يأخذون الأتاوات.

فقاطعه حمزة:

ـ اهدأ يا أبو الأمجد. .

الا أن حسن الأمجد لم يهدأ، اندفع بحدّة وشراسة.

افرغ شحنة غضبه، وظلّ حمزة صامتاً. .

وبعد أن انهى كلامه، صمت حسن الأمجد أيضاً.

صمت، ولعلّه أحسّ بأنه رفع صوته أعلى مما يجب، فأطرق.

ابتسم حمزة وداعبه:

ـ أحياناً يا أبو أمجد أنت تشبه نبات الخرفيش الشائك الذي يكثر عند حوافي قناة الغور الشرقية. .

وعند ذلك جاء هدير الطائرات. جاء فجأة، كانوا يستطيعون أن

يدركوا الخطر من سرعة الصوت، علّمتهم التجربة أن يشمّوا رائحة الخطر قبل وقوعه، ولذلك انتشروا على الفور. . غطّوا المدفع بالبطانيات، وابتعدوا، اختفوا وراء الصخور.

تكاثرت الأصوات، فقال حمزة لحسن الأمجد الذي لا يبعد عنه إلا قليلاً!

ـ الأمر لا يتعلق باستطلاع عادي، يبدو أن هناك عملية. .

كانت الطائرات تظهر على علوٍّ مرتفع.

تعلو في كل الاتجاهات، تصنع سقفاً من الهدير والرعب فوق الرؤوس، تحرث الفضاء، وتشقّ الغيوم، وتجعل الذعر ينتاب الطيور، وتجعل سطح المياه الزرقاء الهادئة يقشعر.

شعر حمزة برغبة في التدخين. أشعل سيجارة.

ـ هل ترغب في التدخين.

كان حسن الأمجد قد استعاد هدوءه. في اللحظات الصعبة يعود صافياً شديد الهدوء.

ـ لا. . .

قال حسن الأمجد. وفي تلك اللحظة بدأ جهاز الارسال الصغير يبثّ.

جاءت إشارة من غرفة العمليّات المركزية تعلن عن اشتباك جوّيّ فوق سهل البقاع، وأعلنت الإشارة عن ضرورة أخذ الحيطة والحذر. . الحيطة والحذر. .

انقطع الهدير. انقطع كما جاء فجأة. وكم يبدو الصمت غريباً بعد كل هذا التوتر!

وبعد ذلك عادوا إلى موقعهم. تجمّعوا..
واستأنفوا أحاديثهم.

تناولوا طعام الإفطار، ودخّنوا السجائر، وبدأت عمليات تنظيف الأسلحة واحصاء الذخيرة..

وعبّأوا مخازن الأسلحة الفارغة أو الناقصة.. ملأوها بالفشك الخطّاط، وبالحارق والخارق، وربطوا مخازن الذخيرة، الواحد فوق الآخر.. لصقوها ببعضها، ولفّوا حولها الأشرطة.

مسح حمزة يديه بالفوطة، مسح عن يديه زيت السلاح، وأعاد أقسام الكلاشن كما كانت.

جاء أحمد الشرقاوي، يشمّر عن ذراعيه اللتين تمتلئان بالزيت والشحم حتى كوعيه، وكانت بقع الزيت تغطّي جبينه وذقنه ورقبته. وقف وقال: انتهينا من تنظيف المدفع.

ـ هذا جيد...

قال حمزة، وظل أحمد الشرقاوي واقفاً..

فعرف حمزة أن هناك ما يريد الفتى أن يقوله.

ـ هل تريد أن تقول شيئاً آخر؟

قال أحمد الشرقاوي.

ـ أريد أن تعطيني إجازة.. أريد أن أذهب يومين إلى بيروت.

صمت حمزة قليلاً، خطر بباله أن هذا الفتى يحبّ صبية من مخيم صبرا، وأنه بحاجة إلى سلفة مالية ليتقدّم إلى خطبتها، وأن السلفة المالية صعبة المنال.. وخطر بباله..

ـ لن أتأخّر أكثر من يومين، وإن شئت أذهب ليوم واحد فقط ثم أعود..

ما أبسط مطالبك أيها الفتى!

ـ اذهب، ولكن حذار من عصابات السوء. .

فرح الفتى. استدار وخطا باتجاه البحر. ليغسل يديه أو ليغتسل من قمة الرأس إلى أخمص القدم. لكنه توقّف، وعاد. . .

كاد أن يتكلّم، لكنه تلعثم. . وارتسم على وجهه الحزن والانكسار، فجلس على الأرض محبطاً.

ـ لماذا عدت. . ؟

سأله حمزة، وإن كان يعرف بالدقّة لماذا عاد، لكنه سأله ليفتح باب الحديث. .

لكن أحمد الشرقاوي لم يرغب في التكلّم ثم قال باختصار:

ـ أريد أن أؤجّل الإجازة إلى أول الشهر القادم.

قال ذلك، وانخرط في صمت كامل.

قال له حمزة ملاطفاً.

ـ لا تحزن يا صاحبي، في أول الشهر القادم سوف نذهب معاً إلى بيروت، والآن قم اغسل يديك واذهب إلى البلدة. . زر أصحابك هنا في الدامور وعد مساء. .

هزّ الفتى رأسه، كأنه يعترف بقساوة الواقع، كأنه يعلن عن موافقته على المزيد من الصبر وانتظار الفرج.

كأنه يلوك مزقاً من اللحظات المرّة. .

وقف ومشى دون أن يقول شيئاً. . حكّ رأسه بشرود.

وفكّر. . وظلّ يمشي. . صدره ثقيل. . محزون. . محزون. . كيف يستطيع أن يمزّق هذا اليوم إرباً إرباً؟

كيف يستطيع أن يلوذ بالفرار؟

- 15 -

انطلق أحمد الشرقاوي بعد أن اغتسل وبدّل ثيابه. مشى بسرعة فيما كان بعض الصيادين يتهيّأون لرحلة المساء.. يحملون الشباك والأطعمة والماء العذب.

قفز من فوق الصخور إلى اليابسة. اليابسة المفروشة بالرمال الناعمة. قطع الشارع العريض. السيارات تعبر على الجهتين وقد أضاءت قناديلها باكراً.

يوم أحد ابن كلب. يوم أحد طويل، ينتشر فيه الناس بين البساتين تحت شمس فاترة.

بدأ الربيع يبزغ بجرأة. بدأت تطلّ الديدان والكعاكل وكائنات مملكة الأرض.

يوم أحد ابن كلب.. ما أقسى أن تكون فيه وحيداً أمام هذا البحر الغامض الذي يوجّه لك نداء الحب أو نداء الانتحار! أحياناً تقف وتطلّ عليه من فوق الصخور العالية. تصطخب أمواجه أمامك وتشتبك مع بعضها، وتعلو فوقها الرغوة والزبد.. وفجأة يأتيك نداء الحياة أو الموت، تشعر بأنك ستقرّر بعد ثوان القفز من علٍ. ترمي بنفسك إلى أحضانها أو إلى التهلكة.

يوم أحد ابن كلب. تمرّ السيارات الفخمة التي تزدحم بالرجال والنساء والأطفال، تمرّ مسرعة دون أن تعبأ بالباعة الذين يقفون على

الأرصفة، يبيعون البقول البريّة أو باقات الزهور، وقلائد الياسمين. أطفال حفاة أو يلبسون الأحذية البلاستيكية الرخيصة.

يوم أحد ابن كلب. تسلّق الطريق ومشى في الدرب الزراعي. . حيث المشاتل والأحواض وبيوت البلاستيك المدفّأة.

كان أبو العسل هذا المساء يحمل على كتفه جهازَ مبيدِ الحشرات، ويرش مزروعات حقله، يلبس في كفّيه قفّازات من المطّاط ويقوم بعمله في بطء كأنه يتنزّه. ثمة سرب من الأوزّ المدجّن يمشي في الطريق الضيّق. الأوزّات الكبيرة تتهادى في خيلاء، وخلفها يمشي الأوزّ الصغير الأصفر، فاقع اللون، ورائحة الحشائش توقظ إحساس الوحيد بحاجته للآخر.

يوم أحد ابن كلب. أين تذهب في نهايته، بعد أن استهلك الجميع دقائقه وساعاته واستمتعوا بعذوبة صباحه، ودفء منتصفه، وقيلولة عصره، بعد أن أكلوا الشواء، وشربوا عرق توما، ورقصوا، ثم ركبوا سياراتهم وقفلوا عائدين. .

أين تذهب في مساء لا يخلو من خصوبة. ولا يزال مفعماً برائحة البراري.

ألا يحق لنا أن نشعر بدبيب الحياة يسري فوق رؤوس أصابعنا؟

شاهدها ـ خطرت بباله. كيف ظهرت أمامه كما لو أنه أراد ذلك، أو أن أمنية قد تحقّقت.

أقبلت من بعيد، تلبس بلوزة بيضاء وتنورة حمراء. تربط شعرها بشريط أبيض كأنها واحدة من بنات المدارس.

يندفع صدرها كالعادة، وتشدّ وسطها بحزام يهصرها ويبرز

خصرها الرفيع. أقبلت السنيورة، من وراء الصخور، أقبلت من وراء أشجار اللوز. من وراء الزهور البيضاء. . .

تلبس حذاء خفيفاً. حذاء للنزهات القصيرة، كأنها بيروتية من حي الوردية.

أقبلت بوجه متورّد. بشفتين مصبوغتين بلون الكرز.

قفز أمامها ووقف وسط الطريق وهتف:

ـ أهلاً بالسنيورة.

فوجئت. ثم ابتسمت. . لعلها تذكّرته، كان قد زارها في الماضي عدة مرّات وشرب عندها الشاي، وسوى ذلك لم يفعل شيئاً.

عرفته. عرفته جيّداً، سلّمت عليه، وكادت تواصل سيرها.

استوقفها.

ـ لماذا العجلة يا سنيورة. . أريد أن أكلّمك قليلاً.

نظرت إليه بشيء من الشك، أو بشيء من التعالي. .

فخاطب نفسه: أيها الفتى! إنها تصدّق أن بإمكانك أن تكون نداً لها. .

مشت، سار وراءها. لم تلتفت إليه. ظلّت تمشي بنزق، وظلّت حقيبتها التي تتعلّق بكتفها تتأرجح.

أسرع وسبقها، وقال مرة أخرى:

ـ اسمعي يا سنيورة. . أريد أن. . .

ارتسم الغضب على وجهها، وظلّ صدرها المندفع يترجرج، ثم توقّفت:

ـ ابعد عن طريقي أيها الفتى وعد إلى عملك.

قال لها: عندي إجازة وأشعر بالضياع ولا أجد أحداً أبثّه شكواي..

قالت بحدّة: لديّ موعد هام.. ثمّة من ينتظرني على الطريق العام بسيارته،وإذا عرف أنك تتحرّش بي سوف يسبّب لك المتاعب.

أفسح لها المجال، فواصلت سيرها..

جلس على حجر في الطريق وظل يراقبها.. خطر له أنها قد تلتفت خلفها وتلقي عليه نظرة إلا أنها لم تفعل. وعند ذلك ضرب الأرض بقدمه.

يوم أحد ابن كلب.. يوم الحب والمواعيد الغرامية، يوم الحياة الدنيا ويوم قيامة العاشقين والفجَرة، ويوم الشبق واللذّة الدائمة. كبش المغامرة ينطح الناس بقرنيه، ووحدك لا تفعل شيئاً أيها الفتى. ولا تحلم وأنت مستيقظ إلا بأحلام فاسدة.

وصلت السنيورة إلى الشارع العام. كان يراها من مرتفعه تقف دون أن تكون السيارة بانتظارها.

طال وقوفه، وطال انتظارها، شعر بأنها كذبت عليه، وأنها تقف بانتظار أن يمر أحدهم بسيارته ويلتقطها.

بدأت الشمس تغيب وراء البحر. بدأت العتمة تنتشر. مرّت ساعة كاملة دون أن تتوقّف واحدة من السيارات الفارهة وتلقطها، وفجأة استدارت السنيورة وقفلت راجعة.. عادت تجرجر قدميها، تمشي بلا حماس، تتباطأ في سيرها وتكاد تتعثّر بخيبة الأمل.

لم يشعر أحمد الشرقاوي بالشماتة، بل إنه شعر بالتعاطف معها، لكنه لم يعد ينظر إليها برغبة، لم يعد يحسّ بأنه يريدها. حتى صدرها، ذلك المندفع والعامر، ما عاد يثير شهيته أو شهوته.

ظلّت تقترب. كانت العتمة ما تزال باهتة..

لم تكن قد احلولكت. رآها. وقعت عيناه على عينيها. وعندما أصبحت بإزائه توقّفت ثم خاطبته متصنّعة الجرأة وعدم المبالاة: سر معي أيها الفتى إلى البيت.. هيًّا. وقف ومشى إلى جانبها، وخطر له أن يسألها لماذا كذبت عليه، لم تكن هنالك سيارة بانتظارها، إلا أنه تجاوز ذلك.

ظلّت تمشي صامتة، كأنها لا تشعر بوجوده.. بماذا تفكّر هذه المرأة؟
انتقلت إليه عدوى الخيبة. أحسّ برغبة في أن يتركها ويذهب، أحسّ برغبة في العودة إلى الموقع.. أحسّ بأن الأشياء فارغة ومجوفّة وخالية من الروح..

وعندئذ كلّمته. سألته دون أن تنظر إليه:

ـ ما الذي يحزنك أيها الفتى..؟

قالت ذلك وأمسكت بيده. لم يهزه ذلك. لم يشعر برعشة الحياة تسري في رؤوس أصابعه. لقد تحيّدت مشاعره كذكر تجاهها.

قال كلاماً ما. اختلق قصة غير حقيقية.

لم تكن بدورها تتابعه، لم تكن تتعاطف مع قصته المختلقة، أو لعلها لم تكن تسمعها. وعندما وصلا البيت، فتحت ودعته إلى الدخول.

أضاءت الغرفة، سطع الضوء كاشفاً عن فوضى في السرير وفوق الطاولة. كانت الثياب والأغطية تتكوّم هنا وهناك.

ـ تفضّل اجلس ولا تعتب عليّ بسبب هذه الفوضى.

خلعت حذاءها وجلست على طرف السرير ودعته للجلوس فجلس بجانبها:
ـ هل أنت على عجلة من أمرك أيها الفتى؟
فكّر في أن يقول لها إنه لا يودّ ذلك. .
فكّر في أن يقول لها إنه لا يرغب في فعل أي شيء بتاتاً. .
ثم قالت:
ـ أغمض عينيك.
ـ لماذا؟
ـ أريد أن أنزع ثيابي.
ـ حتى لو أغمضت عيني فإن النافذة مفتوحة.
ـ قم واغلقها. .
ـ إذا أغلقتها فمن أين يأتي الهواء النقي. . ؟
أدارت له ظهرها وخلعت البلوزة البيضاء، ثم خلعت حمّالة النهدين، ثم خلعت التنورة واندسّت في الفراش وغطّت نفسها.
ـ أعطني سيجارة.
قدّم لها سيجارة.
ـ أشعلها لي. .
أشعلها، وأشعل واحدة أخرى له.
دخّنت على مهلها. نفثت الدخان بتؤدة. مهمومة. . مهمومة. .
ولا تستطيع أن تنسى.
ـ لماذا خلعت ملابسك سريعاً؟.
واصلت التدخين ورمقته بطرف عينيها. .
كرّر السؤال لكي يجد مبرراً لشد انتباهها، فشتمته شتيمة سوقية، ثم أجابت:

ـ عندما أخلع ملابسي أشعر بأنني أنزل عن كتفي هموم يوم بأكمله عندما أتعرّى أشعر بأنني أمتلك جسداً جميلاً فأستمتع بذلك.

بهره كلامها، فخلع قميصه وسرواله واندسَّ إلى جانبها. التصق بها.

ظلَّت تدخِّن، وأبدت ممانعة واضحة، وظلَّت تواصل التدخين بلا مبالاة.

توقَّف عن محاولة شد انتباهها، ولكنه لم يبعد جسده عن جسدها. أطفأت السيجارة، وعند ذلك انحسر الغطاء كاشفاً صدرها وحلمتيها البارزتين.

مسَّت أصابعه صدرها. ارتعش لكنها لم ترتعش.

قبَّل خدها. لم تمانع. حاول تقبيل فمها فلم ترض.

شدَّها بعنفوان إليه. رضخت، لكنها استكانت وألقت برأسها على صدره وطوَّقته بذراعيها..

حاول أن.. لكنها همست بتوسّل:

ـ أرجوك، لنبق هكذا..

ما الذي تريده هذه المرأة.

كم من الجراح تثخن أعماقها؟؟

ظلَّت تلتصق به. ارتاح. رحل العنف واستكان.

استعاد الهدوء والتوازن، عادت له تلك المشاعر الأنيسة.

هبَّت نسمة قوية عبر النافذة.. نسمة تحمل رائحة الحشائش والزرع وزهور الحنون فتنفَّست بعمق، وكان قلبه ينطّ تحت خدها.

تدفّق المزيد من الهواء السلس الناعم.

قالت بصوت خافت: إنّه الهواء الربيعي الذي ينتشل السنابل ويوقظها، لذلك كانت أمي تسميه (نشّال السبل).

قبّل شعرها بحنوّ، وبعد قليل من الصمت سألته:

ـ ماذا كنت تريد أن تقول لي عندما اعترضتني وسط الطريق؟

ـ كنت مهموماً ومحزوناً وبحاجة لأي انسان أبثّه شكواي.

ـ هل هجرتك صديقتك؟.

ـ لا..

ـ هل أنتما في حالة خصام..

ـ لا

ـ إذن لماذا لا تذهب إليها في مثل هذا اليوم المشمس؟

ـ صديقتي في بيروت وقد وعدتها أن أتقدّم هذا الأسبوع لخطبتها..

ـ وما الذي يمنعك؟

ـ كنت أنتظر أن آخذ سلفة من جهاز المالية، لكنهم يعدونني ولا ينفّذون وعودهم.

ـ اليس لك عم في الثورة؟.

ـ ليس لي أحد..

أطفأت الضوء، أظلمت الغرفة، لكن ظلّت النافذة مشرعة. ظلّت مريحة مثل نافذة الأمل في فنجان القهوة.

مرّت فترة أخرى من الصمت. فسألها: ـ كذبت عليّ..؟

أجابت ـ لم أكذب عليك.. لقد وعدني أن يمرّ بسيارته ولكنه لم يفعل..

ـ أهو أحد البكوات الأثرياء. . ؟

ـ لا إنه سائق سيارة يعمل على خطي بيروت صيدا. .

ـ هل تحبّينه يا سنيورة. . ؟

ـ أجل. .

ـ كيف تمّ ذلك؟

ـ ركبت معه من الدامور إلى بيروت، دعاني إلى العشاء. . سهرنا في (دبيبو) وأعادني عند بزوغ الفجر.

ـ التقيته كثيراً؟

ـ لا، كانت تلكِ هي المرّة الأولى، وقد تواعدنا أن نلتقي مساء كل أحد، فنذهب إلى بيروت ونسهر حتى الفجر.

ـ هل خدعك ولم يأت؟

ـ لا أدري. . ربما. . لكنني كنت أفكِّر وأختلق له الأعذار. . لعل سيارته قد تعطّلت، لعله مرض فجأة. .

كان أحمد الشرقاوي يشعر بثقلٍ في جفونه. ألحّ عليه النعاس، ولم يعد يسمع صوت المرأة. ظلّت تتنفّس فوق صدره بانتظام. خطر له أنها تسرح في أفكارها أو تنام. .

فأغمض عينيه وأغفى. .

وقد استيقظ فجأة على حركة وضوضاء وأصوات مرتفعة.

واستيقظت هي أيضاً كالمذعورة. تنصّتا على الأصوات، ثم قفز من السرير إلى النافذة. أطلّ برأسه. . ثم أغلق النافذة وقال لها:

ـ إنها مفرزة اللجنة الأمنية للقوات المشتركة. .

ـ ماذا يحدث. ؟

ـ انهم يفتّشون أحد البيوت كما يبدو. .

ـ هل هنالك ما يوجب ذلك؟
ـ ألم تسمعي بعملية السطو التي تمّت على منزل الخواجا ألبير؟
ـ لا . .
ـ إن المسروقات تقدَّر بنصف مليون ليرة.
ـ اخفض صوتك، وعد إلى السرير.

عاد إلى السرير. وظلّ يتململ.
ـ هل أنت قلق؟
ـ أجل . .
ـ إذن البس ملابسك واغرب عن وجهي.

أحسّ بأنه ينكسر. فقرَّر أن يقاوم:
ـ لا أريد . .
ـ افعل ما يحلو لك . . ابق أو اخرج، ولكن لا تنم بجانبي.

هبط عن السرير، لبس قميصه وسرواله، وتمدَّد على (الصوفاية) العتيقة.

تواصلت الجلبة والضوضاء. تظاهر بالنوم، وعند الفجر صمت كل شيء إلا صوت المؤذِّن، وعند ذلك راح في سبات عميق.

□ □ □

عندما أفاق كانت الشمس تنفذ من زجاج النافذة وتنصبّ على وجهه. لا يقوى على فتح عينيه. يسطع الضوء وتبرز الفوضى ويبدو كل شيء مقلوباً.

عندما أفاق كان وحيداً. أين ذهبت السنيورة؟
اعتدل وقام وعدّل من وضع ملابسه.

خرج إلى المغسلة وملأ كفّيه بالماء ورشق وجهه. أحسّ بالصداع والجوع..

أشعل سيجارة، وعندما كان يلقي عود ثقاب بالمنفضة انتبه إلى أنها قد شربت ركوة قهوة وتركت كل شيء على حاله. لماذا تركته نائماً. لماذا لم توقظه؟

أين سرحت في هذا الصباح، في هذا اليوم المشمس الربيعي؟ فتح النافذة: الشمس والزرع الأخضر والطيور وغيمة واحدة بيضاء.

غيمة تسافر عبر الأفق الأزرق على مهلها..

ومن بعيد يشتغل الفلاحون وعمّال الزراعة. وثمّة جرّار زراعي يحرث أثلاماً في مكان قريب، كأنه يعدّ التربة لموسم قادم. كأنه يوقظ باطن الأرض تمهيداً لزراعة صيفية ناجحة.

نظر أحمد الشرقاوي إلى ساعته. ها هو النهار يقترب من الانتصاف.

ماذا سيقول حمزة.. ماذا يخطر ببال الآخرين؟ لا بدّ أنهم يبحثون عنه الآن، لا بدّ أنهم يلومونه لأنه تجاوز الموعد المحدَّد له، لكنهم كالعادة، سوف يسامحونه عندما يعود. سيعاتبونه برقّة.

سيطلبون منه في الجلسة التنظيمية أن ينقد نفسه نقداً ذاتياً.

استدار في الغرفة، ورأى نفسه في مرآة الخزانة. المرآة المشروخة التي يشاهد المرء نفسه فيها مكرّراً..

ثم خطا باتجاه الباب، فتحه، وقبل أن يخرج ألقى على الغرفة نظرة أخيرة ثم أغلق الباب. خرج إلى الطريق الضيِّقة، إلى الزقاق الذي ينغل بالأطفال. الزقاق الذي لا يخلو من باعة الترمس و(البوشار).

ثم وصل إلى الطريق العام، حيث الحوانيت وباعة الفخّار. . .
باعة الأباريق والطبلات وصحون الصلصال المشوي.

فكّر في أن يدخل مطعم الشواء ويأكل صحناً من الحمص باللحم. بدأ يعدّ النقود القليلة في جيبه. .

وعند ذلك مرّ أبو العسل. مرّ بعربته التي يجرّها حصانه الهرم.

كان يجلس في المقدّمة يمسك اللجام ويمرق من بين السيارات الصغيرة والسيارات الشاحنة.

قفز أحمد الشرقاوي إلى العربة. قفز قفزة واحدة، وإذ به بجانب أبو العسل تماماً. .

كان أبو العسل عابساً. كانت لوجهه تضاريس شاقّة هذا الصباح. .

ـ انزل وعد إلى موقعك.
قال أبو العسل. قال وهو يواصل العبوس:
ـ قل لي صباح الخير على الأقل.
ـ قلت لك انزل وعد إلى موقعك أيها الفتى.

كان أبو العسل يتكلّم بعصبية، لقد رحلت طيبته هذا الصباح. رحلت بساطته ورحلت الالفة الدائمة عن وجهه. .

قفز أحمد الشرقاوي عن مقدمة العربة إلى الأرض.

لم يلتفت أبو العسل إليه. ظلّت العربة التي يجرّها حصانه الهرم تصعد المرتفع ببطء.

واصل أحمد شرقاوي السير. تسكّع قليلاً.

اشترى علبة سجائر ودخَّن على الريق. كان يشعر بالجوع ولكنه لم يدخل مطعم الشواء، لم تكن القروش القليلة في جيبه تكفي، مشى، ومشى.. الناس يتسابقون في الشوارع سعياً وراء الرزق. وتفوح من البساتين، رائحة السماد ورائحة مبيد الحشرات. يمشي عائداً إلى موقعه.

يمشي عبر الأرض الزراعية. يمشي بمحاذاة البساتين الكبيرة. يمشي بمحاذاة الحواكير الصغيرة. الفلاّحون يعملون...

العصافير تملأ الأفق ولا تخاف من حارس البستان الذي أصبح أليفاً.

يمتلىء الصدر بدفقة من هواء البحر. تهجم أصوات الأمواج وهي تصطدم بالصخور. تهجم الإحباطات الصغيرة وكآبة ليلة خلت..

يعود أحمد الشرقاوي إلى موقعه، يعود صاعداً سلالم الصخور: صاعداً سلالم قلبه الأرعن. يواجه حمزة. يواجه غضب أب. يواجه العنف ويواجه التسامح.

نقد نفسه نقداً ذاتياً، وقرَّر أن يعاقب نفسه بأن يحرس ضعف الفترة المقرَّرة له. وبعد الغداء دارت أحاديث شتى.. روايات عما يحدث في بيروت، ومقتطفات من أخبار البلدة، ثم جاء الشايب يصطحب معه طفلاً يقفز وينطّ حوله.

جاء الشايب يحمل أخباراً هائلة.

تحلَّق الشباب حوله، كان يخاطب حمزة..

حكى عن (أبو العسل)...

لقد أدلى (أبو العسل) بشهادة خطيرة أمام اللجنة الأمنية..

قال الشايب إن (أبو العسل) ذهب هذا الصباح وطلب مقابلة عاجلة مع الرائد سهيل رئيس اللجنة الأمنية التي جاءت من بيروت للتحقيق في عملية السطو على منزل الخواجة ألبير. . قال إنه يتّهم سعيد. قال إنه شاهد بأمّ عينه سيارة ألفا روميو تقف أمام الفيلاّ الكبيرة. قال إنه كان يبحث آنذاك عن حصانه.

قال إنه شاهد أحد الحرس فاختبأ وراء الأشجار. . إنه شاهد عدة أشخاص يخرجون على عجل. .

توقّف الشايب عن الحديث قليلاً. طلب قليلاً من الماء.

وبعد أن شرب قال إن اللجنة الأمنية أصدرت مذكّرة توقيف بحق سعيد، لكنهم لم يعثروا عليه بعد. .

كبرت القضية وصارت بحجم الفضاء كله. . سألوا واستزادوا، لكن لم يكن لدى الشايب معلومات تزيد عن ذلك.

قال حسن الأمجد: أراهن أنهم لن يتمكّنوا من إلقاء القبض عليه.

رمقه حمزة بعتاب وقال:

ـ ننتظر حتى يأخذ التحقيق مجراه.

أضاف حسن الأمجد الذي لا ينضبط عادة في مثل هذه اللحظات:

ـ يا خوفي من الثمن الباهظ الذي سيدفعه أبو العسل.

كان أحمد الشرقاوي يستمع وكأنه يسترق السمع.

كان حاضر الذهن لكنه غائب الذهن، كان ينظر إليهم لكنه يشاهد سحابة تغطّي عين الشمس.

- 16 -

حلَّ أبو العسل رباط حصانه وتركه يرعى في (البورة) المجاورة.

في هذا المساء الصامت كانت رائحة الحشائش تفعم الأنف. كان البرغش والناموس والحشرات الخضراء تخرج من بين أوراق الخبيزة والنباتات البرية، وتنتشر في الفضاء.

لقد ظلَّ ساعة يجلس وحيداً على المصطبة أمام البيت، يدخّن أو يفكّر أو يطرد عن وجهه الحشرات العابرة..

وراقب الحصان قليلاً وهو يسرح على مهل وينهمك في قضم الحشائش الطرية فقال لنفسه إن الحصان سيستعيد قوّته في هذا الربيع المبكر، فقد ظلَّ طوال الشتاء الماضي يأكل الشعير الجاف، وها هو يأكل وجبات طازجة، فمتى تعود له الحيوية والعافية، فيصهل ذلك الصهيل الذي كان يطلقه كلما مرّت من أمامه فرس شقراء؟

كان أبو العسل يشعر بالطمأنينة. لقد ظلَّ الناس يتوافدون على بيته طوال فترة الظهيرة وما بعد العصر..

ها هو يتحوَّل فجأة إلى شخص هام ويصبح رجل الساعة..

جاء الشايب. جاء حمزة. جاء الزهيري..

وجاء من شدَّ على يديه. جاء من نظر إليه بإعجاب. جاء من بالغ في مدحه. جاء من أطنب في ذكر شجاعته. جاء من حكى له عن

العواقب الوخيمة لما أقدم عليه. جاء من حذّره من مغبة المواجهة مع الأمن العسكري.

كان يستمع إليهم. يقلق قليلاً لكن ليس لدرجة الخوف.

عندما قرّر الذهاب لمقابلة اللجنة الأمنية والادلاء بشهادته كان قد درس الأمر بعناية. فكّر أن يشاور أقرب الناس إلى قلبه لكنه خشي من التردّد.

أعطاه الله القوة. دبتّ في قلبه الشجاعة، شحنه إيمان هائل بالطاقة والقدرة. هتف هاتف خفي أن قم والبس ملابسك واذهب من أجل إحقاق الحق.

كان في الليلة الماضية قد فكّر طويلاً ولازمه التردّد والخوف من المجهول، لكنه بعد أن نام رأى فيما يرى النائم الملائكة والصدّيقين. رأى البساط الأخضر...

وشعر بأن ذلك إشارة. إنها علامة. إنها ومضة.

أفاق عند الضحى. إنها من المرات القليلة التي ظلّ نائماً فيها حتى سطعت الشمس.

اغتسل وبدّل ثيابه وتناول الافطار، ثم شدّ الحصان إلى العربة، وركب العربة وسط دهشة زوجته، ومضى لا يلوي على شيء.

وعندما وصل إلى مقرّ اللجنة الأمنية أوقف العربة. أوقفها في الظلّ وقفز إلى الأرض.

قال له الرائد سهيل: أنت بالغ راشد عاقل، ولن تتراجع عن إفادتك أليس كذلك؟

أجابه أبو العسل بثقة: لا أخاف في الحق لومة لائم.

وسرد أبـو العسل مـا رأى في ذلك اليـوم. . يوم الـرياح الهـوجـاء عندما كان يمشي في صحراء الصقيع يبحث عن حصانه الهرم.

ـ ضعت في متاهة البرد. . في حقول الرياح الرهيبة. أضعت طريقي بعد أن ثارت زوبعة الرمال. هجم عليّ الخـوف فقرّرت أن أعـود من حيث أتيت، لكنني فقدت الاتجاه الـذي يتعينّ عـليّ أن أسلكه. ظللت أخوض في بحر العنف. بحر الرمال والهواء الذي فقد صوابه وبدأت أبحث عن شخص يدلّني على الـطريق. شاهـدت من بعيد بيتـاً على التلّة المقابلة. سرت إلى المكان.

«تمكّنت من الـوصول إلى البيت بصعـوبة. . ويـا للمفاجـأة! فقـد شاهدت سيارة (ألفا روميو) الصفراء تقف قريباً من البيت. شـاهدت سيارة عسكرية أخرى.

«كان هنالك حارس قلق يـرقب المكان ويشهـر سلاحـه. خفت من التقـدّم. اختبأت وراء الأشجـار. بعد قليـل خرج عـدد من الرجـال يحملون بـأيديهم حقـائب سـوداء. هـرعـوا إلى السيـارتـين ولحق بهم الشاب الذي كان يحرس المكان.

«أحسست أن هناك عملية سطو.

«وهذا ما حدث بالفعل. .

«إني أتهمهم جميعـاً. إني أتهم جميع أولئك الـذي يسـانـدونهم. إني أتهم صاحب السيارة الصفراء سعيد. . اجلبوه. . حقّقوا معه.»

شدّ الرائد سهيل على يده وهو يودّعه عند الباب.

ـ سوف أحتاج إليك مرة أخرى أيها الرجل الطيّب.

عاد إلى عربته. كان الحصان ينتظر. لعله أحسّ بخطورة ما يحدث فلم يتحـرّك، كان يقف قـرب العربـة عدد كبـير من الناس. كـانـوا

ينظرون إليه بغريزة حب الاستطلاع، لكنه لم يكلّم أحداً (كيف عرفوا فيما بعد؟)..

ركب عربته، وشدّ اللجام، فمشى الحصان الهرم.. مشى ببطء في البداية وما لبث أن أسرع ومشى خبباً.

تناول العشاء بينما الفراشات تتصارع حول المصباح.

شرب القهوة السادة وهو يمتلىء بالسكينة.

لعب الأولاد حوله فلم ينهرهم ولم يطلب منهم أن يكفّوا عن الضجيج.

نام الأولاد وأطفأت زوجته المصباح، ونضت ثوبها واندسّت إلى جانبه في الفراش.

طوّقها لكنه لم يكن يرغب في ذلك.

انتهى واجبه الزوجي دون أن يشعر باللذّة.

وعندما نامت المرأة وعلا شخيرها، قام وأشعل سيجارة.

قام وتفقّد الحصان، ثم أعدّ أنابيب رش المزروعات، وجهّزها لكي يبكّر في الذهاب إلى الحقل..

وبعد ذلك عاد إلى الفراش وحاول أن ينام. أغمض جفنيه وبحث عن النعاس. وبين النوم واليقظة رأى فيما يرى النائم سعيد راجي مكبّلاً بالحديد، رأى الشمس تشرق على مخيّم يحاذي شاطىء البحر. تكثر فيه الطيور وتقلّ الأفاعي. تزداد فيه حقول اللوبياء والخيار والبندورة وأقراص عباد الشمس ويرحل عنه الدود والجراد والحشرات السامة. يعجّ بالمقاتلين والأشبال والمواقع وتغلق مكاتب الأمن وأوكار الأجهزة وفارض الأتاوات.

رأى فيما يرى النائم البحر شديد الزرقة.

- 17 -
الذبح

أمام ملحمة الصدق. . والأمانة.

كان الجزّار يذبح مجموعة من العنزات السوداء بالدور الواحدة بعد الأخرى. . وكان مساعده يتناول العنزة المذبوحة ويبدأ بسلخ جلدها الأسود. .

كان الدم يسيل من الوريد إلى الأرض، ومن الأرض إلى الرصيف ومن الرصيف إلى الأسفلت.

أما العنزة السوداء المذبوحة، فإنها ونافورة الدم تشخب من الوريد يهتز بدنها، وتلعبط كالسمكة، وتعبر عن نداء الاستغاثة بكل الوسائل الممكنة.

وبعد أن تتوقف حركتها ويكف نبضها، يتناولها مساعده. يشق ثغره في جلد رجلها ومن ثم ينفخها بفمه.

يظل ينفخها إلى أن يصبح بطنها كالبالون، وعند ذلك يعمل فيها سكّينه شقاً، وفصلاً للجلد عن اللحم.

وبعد أن ينتهي كل شيء، يعلقها بالكلاليب في الفضاء تاركاً أمعاءها ومعدتها وجلدها الأسود على الرصيف. أمام ملحمة الصدق والأمانة، كانت العنزة المذبوحة تسخر من العنزة المسلوخة وكانت العنزة المسلوخة تضحك لمنظر العنزة المشبوحة في الهواء، وكانت

العنزة المشبوحة ترثي لحال العنزة التي يقطعونها بالساطور ويضعونها في كفة الميزان.

سقف النار

في بناية النقاهة التابعة للهلال الأحمر، كان أولئك الذين ينتظرون أن يفرغ مصنع الأطراف الصناعية من إنجاز أطرافهم، يستلقون على أسرتهم ويسندون العكاكيز إلى الحائط ويستمعون إلى حديث الممرضة.

لقد طال مكوثهم في هذا المكان، لذلك فإن صداقة متينة قد نمت بينهم وبين الممرضة.

ويبدو أن سوء الحال طوّر تلك الصداقة وزادها متانة. في بناية النقاهة، في المهجع الكبير، تجمعوا حول صينية القهوة.. يتحدثون ويحتسون البن. ويحتسون الحديث الأليف أو الحزين، وتمتد فيما بين بعضهم بعضاً جسور الطيبة والصدق والنوايا النظيفة.

كانت الممرضة التي تحرص على الاهتمام بهندامها الأبيض، وتمثل علاقتهم بالحياة اليومية للدامور. تحكي لهم حكايا المخيم، وفرحة الصغير أو كآبته الكبيرة.

حول فنجان القهوة، حكت الممرضة عما يحدث في قضية السطو على منزل الخواجا ألبير.

قالت إن الرائد سهيل ألغى أمر الاعتقال الصادر بحق سعيد لأن بعض الشهود أثبتوا أن سعيد أثناء الحادث كان يتواجد عندهم، كما أن الياس صاحب كراج الاعتماد أفاد بأن سيارة (الفاروميو) الصفراء

كانت متوقفة في الكراج للتصليح في اليوم الذي جرى به الحادث.

لـذلك عنـدمـا ذهب سعيـد لمقـابلة اللجنـة الأمنيـة، لم يستغـرق التحقيق معه سوى بضع دقائق، خرج بعدها، وودعه الـرائد سهيـل وأوصله إلى الباب. .

ارتسمت على وجوههم الخيبة والقهر. وعبثاً حاولت الممرضة تغيير الحـديث. عبثاً حـاولت أن تخرجهم من أعـماق بئر الهزيمـة العميق، حدق بعضهم في فنجان قهوته. كـانت الطرق مغلقـة في الفنجان، لم يكن في الفنجان طاقة فرج ولا ثغرة أمل.

وحدق بعضهم الآخر إلى أعلى. .

لم يكونوا يطلبون الـرحمة من السـماء. . لكنهم كانـوا يتخيلون كم أن سقف النار منخفض!؟

الانتقام

طرق الباب بعد منتصف الليل. كان أبو العسـل ينام نـوماً ثقيـلاً بعد عمل يوم شاق في حقله الصغير.

ينام متوسداً رضاء الضمير ونقاء السريرة. .

يغفو، ويتنفس ملء رئتيه، وينضح جبينه بالعرق.

طرق الباب بعد منتصف الليل بعنف.

أفاقت الزوجة، هزت زوجها من كتفه.

ـ هناك من يطرق الباب يا رجل.

صحا أبو العسل ـ استيقظ. انزعج. أدرك. . .

لم يدرك. مرت لحظات قبل أن يستوعب الكلام.

أضاءت زوجته النور.

تواصل الطرق العنيف فصاح بصوت عال:

ـ من هناك.

لم يأت جواب. فأعاد السؤال:

ـ من هناك.

أجاب الطارق بالمزيد من الطرق.

ووقف أبو العسل فجأة. طار النعاس من عينيه ولم يخطر له سوى القفز إلى زاوية الغرفة، والتقاط البندقية التي يضعها فوق سطح الخزانة خوفاً من عبث الأولاد، لكن وقبل أن يفعل ذلك انكسر الباب، دفعه أحدهم بكتفه، وفوجيء بثلاثة رجال مقنعين يهاجمونه بأعقاب البنادق.

فوجئت الزوجة وهاجمها الرعب، فحاولت أن تصرخ، لكن صوتها لم يصل إلى حنجرتها.

دافع أبو العسل عن نفسه، أنشب أظافره في وجه أول المهاجمين، ركل الآخر بقدمه، لكن أعقاب البنادق تتالت فوقع مضرجاً بدمه.

صرخت زوجته من أعماق جمجمتها، فصدر عن ذلك صيحة وحشية، بينما كان المهاجمون ينسحبون على عجل.

صرخت المرأة وصرخت. أفاق الأولاد مذعورين. جاء الجيران. حدث هرج ومرج. جاءت سيارة الإسعاف أخيراً. كانت تطلق نفيراً قائماً. كانت توقظ النائمين وتعلن لهم عن كارثة جديدة.

- 18 -

اندفع القهر كالرياح

مرّ في الحواري، وعند المنعطفات، عبر الدروب الوعرة، والنوافذ المحطمة، وفوق أسطح بيوت التنك.

أوغل، ومشى في عروق المقاتلين، وعناصر المليشيا، في السهول المزروعة وعلى طول الشاطىء.

غاص القهر كالسمكة. سبح القهر في العروق وأصبح له أسنان حادة.

أصبح شرساً كالحيتان.

أخذوا (أبو العسل) إلى مستشفى عكا في بيروت، كسر في الجمجمة، وارتجاج في المخ. وضعوه في غرفة العناية الفائقة.

امتلأ الممر بالزوّار. ظلوا ينتظرون إلى أن زال الخطر.
وفي المساء عادوا إلى الدامور.
عادوا يجرجرون أقدامهم. عادوا مثقلين بالاحباط.

وفي وقت متأخر عاد الشايب من بيت (أبو العسل). عاد بعد أن واسى زوجته بعد أن أكد لها أن الثورة لا بد أن تلاحق الفاعلين.

وفي الموقع المتقدم على الشاطىء كان هناك غليان، كان الحوار حاداً وشرساً.

يتكلم حسن الأمجد بحدة وعصبية، كأنه يصارع أو يـلاكم، يعلن أن لا فائدة، يـطالب بالتمـرد، وإعلان العصيـان إلى أن يتم القضاء على ظاهرة سعيد.

وكان حمزة شط البحر يستمع ويصمت. .

ترك حسن الأمجد يعبر عن آلامه، ترك الآخرين يستهلكون شيئاً من مخزون قهرهم، ترك السنة اللهب تندلع.

استدار، قرر أن يغادر الموقع، فنادى على أحمد شرقاوي:

ـ هيّا.

قفز أحمد شرقاوي وراء مقود السيـارة، ركب حمزة. ركب دون أن يقول شيئاً. دون أن يودعهم، فصمتوا فجأة. .

كفوا عن الحديث والكلام، وتعلقت أبصارهم بالسيارة.

مشت السيارة متمهلة في البدايـة، ثم ما لبثت أن انـطلقت بأقصى سرعتها.

ظل حمزة عابساً.

لم يجـرؤ أحمد شرقـاوي على الكـلام، لكنه حـاول أن يحدس عـما يدور في ذهن حمزة إذ لاحظ أن حمـزة يتحسس مسدسـه بين لحـظة وأخرى.

توجه إلى مقر اللجنة الأمنية.

استدار أحمد شرقاوي بالسيـارة دورة كاملة، وانعـطف باتجاه مقر اللجنة الأمنية.

هبط حمزة. طرق الباب. المكان معتم. . لا أحد كما يبدو. لكن.

بعد قليل أضاءت احدى الغرف، وأطل حارس هذه النعاس، وقال وهو يتثاءب إن الرائد سهيل قد عاد إلى بيروت بعد انتهاء مهمته، ولم يعد ثمة من يمكن أن تتحدث إليه.

عاد حمزة إلى السيارة. حدق أحمد شرقاوي إليه منتظراً إشارته. بعد قليل من الصمت قال حمزة:

- إلى مقر قيادة الميليشيا

اندفعت السيارة عبر الشوارع الخالية، وتوقفت أمام مكتب الميليشيا.

هبط حمزة. وتحادث مع الحارس الذي يقف أمام المبنى، ثم دخل لمقابلة الضابط المناوب.

خرج بعد قليل وعاد إلى السيارة.

ظل أحمد شرقاوي ينتظر، وعندما طال وطال انتظاره، سأل بهدوء: والآن.. إلى أين نذهب؟

حك حمزة رأسه، وظل شارداً..
لا أدري أين أذهب. لا أدري إلى أين تفضي هذه الطرق.
الدروب موحشة، والزاد قليل، والرؤية غير واضحة..

الضباب ينتشر، والأرواح تتعذب ويعلو صوت خسيس القوم على أصواتنا، الجبان يزأر، والرعديد يرفع رأسه عالياً، يتعاظم القلق، ويزداد العبث، ويكثر التخريب. الأشياء تتآكل أو تتلف أو تتداعى. تحت الخيمة مقاتل ولص، تحت سقف النار فارس وانتهازي.

فمتى تـزلزل الأرض زلـزالها، وتنفجـر براكـين القهر، وتنتهي إلى الأبد سياسة أذلال الرجال؟

ـ إلى أين؟
ـ أين يمكن أن نجد سعيد؟

فوجىء أحمد شرقاوي، داهمه الخوف، وتخيل كارثة جديدة.

ـ لا أدري..
ـ علينا أن نفتش في كل مكان.
ـ سعيد لا ينام في الدامور. إنه ينام في شقته بالروشة.

صمت حمزة. يا للصداع والدوار وضيق الصدر..

كيف يمكن وقف زحف الصحراء على التراب البني..
كيف يمكن وقف هجوم الغربان السوداء على الزرع الأخضر؟؟

□ □ □

ـ إلى أين..
ـ نعود إلى موقعنا.

في الموقع يجلسون صامتين. كأنما استنفدوا كـل الكلام. الكـلام الدارج والكلام الفصيح، الكـلام المباح والكـلام الممنوع. كـانـوا يسندون ظهورهم إلى الصخور. يلقون أثقالهم وتعبهم.

ويطلقون العنـان للخيال الـذي ليس له أجنحـة. يطلقـون العنان للزمن الواقعي، واللحظة المرهقة.

لم يتناولوا هذا المساء طعام العشاء.
لم يشربوا الشاي الغامق أو القهوة المرة.
لم يلق أحدهم طرفة بريئة أو نكتة جريئة.

لم يقهقه جيفارا العراقي، ولم يضحك من الأعماق الفتى رضوان.
ظلت رائحة البرتقال تضيع وسط الملوحة والرطوبة والزنخ.

هبط حمزة من السيارة. لم يتكلم. ذهب إلى خيمته ولم يتكلم.

كان هدير البحر واصطخابه يعلو على وجيب القلوب واصطخاب الأعماق.

حدق حمزة بالبحر الأسود..

يكبر الحزن. يهب مثل الرياح الهوجاء.

«وأنت مثل مالك الحزين.. فإذا هبت عليك الرياح عن يمينك ماذا ستفعل؟ وإذا عن شمالك.. وإذا هبت من كل مكان.. ما الذي أنت فاعله.. ما الذي أنت فاعله؟»

ظل حمزة ساهراً يحدق بالبحر الأسود..

كان يشعر أنه مثل طائر محنّط لا يقوى على الطيران.. مثل طائر محنط لا يستطيع أن يقف على قدم واحدة، وإذا ما شعر بالحاجة لا يستطيع أن يتلفت ويحك بالمنقار صدره أو جناحه.

- 19 -

توقفت الحياة، تـوقف ما فيهـا من بقايـا البهجة وحـلاوة الروح. دبت حـالـة مؤقتـة من اليـأس والقنـــوط، وفقـدت أحـاديث المخيم عذوبتها.

عم السخط كل بيت، وأصبح سعيد راجي كالشيطان الرجيم، لم يجرؤ على العـودة إلى الدامـور. قيل إنهم سحبـوه إلى المركـز في بنايـة النصر عند دوار الكولا. قيل إنهم سحبوه ليكون قائد حرس بيت أبو الزعيم في الفردان، وقيل إنه صار من حرس السفارات.

وجاء مندوب من الأمن لتطييب الخاطر، وبعدهـا بأيـام جاء قـائد تحرسه سيارات (رانج روفر) وزار قيادة القـوات، ووعد بـالتحقيق في حادث الاعتداء على عنصر الميليشيا (أبو العسل)،

كما أصدر قراراً بصرف مخصصات لأسرته طوال فترة العلاج. وفي نقاهة الهلال الأحمر الفلسطيني كانت الممرضة ماري التي تحرص عـلى نصـاعة مـريولهـا الأبيض ونصاعـة أسنانها، وتضـع شيئـاً خفيفـاً من المكياج لتخفيف شحوب وجهها.. كانت تحكي لجرحى النقاهة يومـاً بعد يوم أخبار (أبو العســل) في مستشفى عكا، تستقي معلومـاتها من صديقاتها الممرضات في غرف العناية الفائقة.

كان أبو العسل يتحسن، ولكن جسده يضمر، ارتجاج المخ يتسبب في ضمور عضلات اليدين والرجلين، لذلك فإن العلاج سيحتاج إلى

ثلاثة شهور، وبعدها ربما يأتي إلى هذه النقاهة بضعة أشهر أخرى قبل أن يتمكن من العودة إلى حقله.

وعند ذلك يشعل الجريح (أسعد) الذي زرع الطبيب سيخاً من البلاتين في ساقه، يشعل السيجارة من اختها، ويقف على عكازيه، ويغادر المكان.. يتوجه إلى الشرفة التي تطل على البحر كأنه يبحث عن فضاء ضائع..

أما حادث سرقة منزل الخواجا ألبير فإن أحداً لم يعد يتكلم عنها، ويبدو أن الحادث قد سجل ضد مجهول، وقيل إن الخواجا ألبير نفسه، ذهب إلى اللجنة الأمنية في بيروت وأسقط شكواه خوفاً وهلعاً.

وفي منزل الشايب فقدت الأحاديث حرارتها.

وظل مكان (أبو العسل) شاغراً..

لم يجلس أحدٌ على الفرشة التي كان يجلس عليها، ولا المسند الذي كان يتكيء عليه.

وواظب الشايب وحمزة والزهيري على زيارته، وذهبت زليخة معهم عدة مرات وظلت تزور زوجته كل يوم.

ظلت الأرغفة تتحمر في فرن الزهيري، وظلت الوجوه الذابلة التي أرهاقها العمل أو السهر أو سوء التغذية، تلوك اللقمة، ويصبح للخبز في أفواهها مذاق الدمع.

ظل عمّال الزراعة، وسائقو السيارات، وباعة العلكة، وشغيلة المياومة يتوقفون على الرصيف عند بائع الشواء الذي يبيع في الهواء الطلق.

يشوي لهم قطع (المعلاق). . القصبة، والفشة، والكبدة، يشوي الاسياخ وسط عاصفة من الدخان، ويقدمها لهم ساخنة مع البقدونس والبصل والليمون والسماق والتوابل. يقدمها لهم بليرة أو ليرة ونصف، وبعد أن يشبعوا يشربون الشاي بالنعنع ويحمدون الله، ويطلبون رضاه ورضا الوالدين وينتظرون الفرج.

وعند مجمع الحنفيات تتجمع النسوة، ينتظرن الدور ليملأن، يسيل مجرى رفيع من الماء وينحدر عبر الشارع باتجاه حقول البامياء.

تقلب السنيورة - كالعادة - السطل وتجلس عليه، وتشعل سيجارة، وتنتظر دورها دون أن تحادث غيرها من النساء.

وجهها ذابل هذه الأيام، وتتألم على طريقتها دون أن يحس بها أحد. .

ما زالت تذهب مساء كل أحد. تقف على الشارع العام، تنتظر عبثاً الرجل الذي وعدها ولم يف بوعده.

تظل تنتظره دون كلل. تعرف أنه لن يأتي ولكنها تنتظر، لم تعد تفتح الباب لكل مارق طريق، تغلق على نفسها الباب بعد الثامنة، تكون قد حصلت على تموينها من السجائر والخبز والبسطرما، تقرأ مجلة الشبكة، تقرأ أخبار النجوم وأبراج الحظ، ومشاكل القراء.

وفي وقت مبكر تطفىء الضوء وتنام.

قبل أن ينتصف الليل ينام الناس في المخيم. تخلو الشوارع، وتغلق الأبواب والنوافذ على الآلام الصغيرة أو احتمال الفرح أو الخوف من المجهول، ولكنهم على كل حال ما زالوا ينتظرون المعجزة التي ستأتي بها الثورة.

- 20 -

إنها بيروت. .

ها هو دوار الكولا. كازية الحركة. حاجز الكفاح المسلح. كراج الأندلس. مبنى الأمن الموحد. مكاتب أبو إياد. مطعم الشموع. الجامعة العربية. الفاكهاني. كراج درويش. مكتب القائد العام. ساحة جلول. مقبرة الشهداء. الحرش.

تمشي. تمشي. تركب السرفيس وتأكل الهميورغر واللحمة بعجين. تشرب الجلّاب من مرطبات فهيان أو عصير قصب السكر على طريق الروشة.

تهجم على بيروت يا أحمد شرقاوي بعد هذا الغياب الطويل كأنما تريد أن تراها في لحظة واحدة.

نبيلة ما زالت تدق الأرقام وراء الآلة الحاسبة. لكنها تلبس فستاناً جديداً يكشف ذراعيها وابطيها، وتصبغ شفتيها بأحمر شفاه له لون الكرز.

تقول لك لا أستطيع أن أترك عملي. . عد مساء، فنذهب للسينما معاً. تعاتبك لأنك تأخرت. تقول لك إن أهلها انتظروك كما وعدت. .

تغمغم كلاماً غير مفهوم. تقول انك ستشرح لها فيما بعد. . تودعها وتمشي. . من الآن وحتى المساء ساعات طويلة. أين تذهب؟

الحياة قوية. الحياة جارفة. كل شيء يسير بقوة الحياة.. لا شيء يوقف التدفق في عروق هذه المدينة، لا القذائف العشوائية ولا السيارات المفخخة، ولا الاشتباكات الداخلية... مشى على طريق الروشة، سوق الروشة، سوق المهجرين،الدخان المهرّب، والأدوات الكهربائية، الشراشف والأغطية الصوفية، سراويل الجينز وقمصان النوم الشفافة.

وفوق ذلك كله فباعة أشرطة الكاسيت يملأون المكان صخباً وضجيجاً.

على رصيف شارع الحمراء المجلات العارية. المجلات الجنسية، والمقاهي، والنساء الأنيقات، الجمال الهادىء، والأنوثة الصارخة. باعة العلكة والأمشاط وقلائد الفل والياسمين وباعة الذهب وثريات الكريستال والسجاد العجمي.

دور سينما، بنوك، أفلام فضائحية. عرانيس الذرة المسلوقة أو المشوية. ساندويش الشورما وأوراق اليانصيب. تنزيلات آخر الموسم. كلام على أدوات التجميل، وتنزيلات على الملابس الرجالية. جرائد جرائد. مجلات رصينة. روايات عبير. البيان والتبيين ونهج البلاغة. زياد رحباني وسامي كلارك، صور شهداء واعلانات وفاة..

وتدور بك السيارة. يتوقف سرفيس آخر الخط عند أبو خضر في كورنيش المزرعة. الحوانيت والواجهات والبائعات والسيارات الشاحنة. العتالون وماسحو الأحذية، الجلّاب وكشك الفقراء والسحلب..

انتخبوا زكي أبو غليوم، وشباب محلة أبو شاكر يرفعون صورة القائد المعلم، جامع عبد الناصر. .

خلايا (المرابطون). عمارة القصر. . وما زلت تفكر بالمساعدة. . تفكر بالكلام الذي ستقوله لنبيلة. . تفكر بالكذبة البيضاء والوعود البيضاء. . والحظ الأسود. . تمشي، تتعب. تشعر بالارهاق.

تعود إلى الجامعة العربية. إلى الفاكهاني. .

ما زالت نبيلة تدق الأرقام وتجلس وراء الآلة الحاسبة. .

تبدو شاحبة ومرهقة. . ليست جميلة للغاية ولكن وجهها أسمر. .

قال لها: أراك مساء في البيت.

صلت قرابة ما تربطها. . قرابة بعيدة. أهلها يحبونك، اخوتها أصحابك ورفاقك. فأجابت وهي منهمكة في ترتيب النقود في الصندوق حسب فئاتها.

ـ حسناً.

مشي. مشي. مكبرات صوت. سيارات. أكاليل. ثلة من عناصر الكفاح المسلح بلباس المراسيم. جنازة شهيد. صورة شاب في بداية العمر. استشهد أثناء القيام بالواجب. ابتعدت الجنازة. . عطش. توقف. شرب من محل العصير كاسة من لبن العيران، ثم فكر في لقمة. . توجه إلى محل (أبو علي والأربعين فروج). . جلس على الطاولة. . طلب نصف فروج مع الثوم. طلب قنينة صغيرة من مياه الصحة. طلب صحناً من الكبيس.

أكل وشرب وغسل يديه، ودفع الحساب، وعندما همّ بالخروج كان هناك من ينتظره.

ـ تفضل معنا.

كانوا ثلاثة رجال مسلحين بالمسدسات، وكانوا مهيّأين لسحبه إلى سيارتهم بالقوّة.

ـ من أنتم؟

ـ أمن الثورة..

نظر حواليه، لم ير سوى نظرات صاحب المطعم الحائرة.. القلقة..

هزّ رأسه، ومشى. صعد معهم إلى السيارة.. سيارة مرسيدس سوداء انطلقت عبر الزحام مطلقة نفيرها الذي يشبه نفير سيارات الاسعاف، وما هي إلا دقائق حتى توقفت أمام مبنى في عمق الفاكهاني..

أدخلوه غرفة في الطابق الخامس. طرق أحدهم الباب، ثم فتحه. دخل أحمد شرقاوي.. ويا للمفاجأة!!

كان سعيد يجلس خلف مكتب أنيق..

شعره لامع، ووجهه حليق، ويعبث بحمالة مفاتيح في يده.

ـ اجلس.

جلس، فقال له سعيد مبتسماً:

ـ كان يجب أن تسأل عني وتأتي بنفسك.

ـ ماذا تريد مني؟

قالها أحمد شرقاوي بغضب.

ضغط سعيد راجي على الجرس، وطلب قهوة وعلبة سجائر.

ـ أريد أن أتحدث معك.. وأن أساعدك.

ـ لا أريد شيئاً.

اتسعت ابتسامة سعيد وقال:

ـ ألا تريد مساعدة مالية؟

قال ذلك وهو يواصل العبث بحمالة المفاتيح.. لعلها مفاتيح سيارة الفاروميو الصفراء..

وأضاف سعيد راجي:

ـ ألا تريد مساعدة مالية لكي تتزوج.. أستطيع الآن بربع ساعة فقط أن أحضر لك المبلغ..

صمت أحمد شرقاوي. تجهم وعبس ومرت غيوم شتى فوق صفحة وجهه.

تراجعت الأشياء وتقدمت صورة نبيلة.

يرحل الشحوب ويتورد وجهها.

يرحل الصقيع ويهجم الدفء.. ترحل العاصفة البحرية وتعود الأمواج هادئة مغسولة.. تنفتح أبواب الحياة ونوافذ الأمل و...

دخل خادم وقدم القهوة، وعند ذلك هجمت الوساوس والشكوك والنوايا السيئة.. هجمت صورة (أبو العسل) مهشماً فاقد الوعي.. هجمت صورة الجرحى الذين ينتظرون أن تركب لهم الأطراف الصناعية.

هجم الخوف والقلق وحزن المخيم.. هجم الانكسار والتشاؤم والرعب الخفي.. فقال مرة أخرى بحدة:

ـ لا أريد شيئاً.. لا أريد شيئاً.

ـ على كل حال صرت تعرف مكتبي وتستطيع أن تعود متى شئت.

وقف أحمد شرقاوي متهيأً للخروج.

فقال سعيد:

ـ ولن يطول غيابي عنكم.

خرج إلى الهواء الطلق. استنشق بعمق وملأ رئتيه.

شعر بالتحرر قليلاً لكنه بعد وقت قصير شعر بقيود واقعه الصعب تمسك به من معصميه. بل ان احساساً حاداً بسوء الطالع أخذ يطارده.

شعر أنه بحاجة الى بحر مترامي الأطراف، إلى صخور مسننة. تهجم عليها الأمواج إلى أفق أزرق لا تعبره الا الطيور والغيوم البيضاء.

اندفع لا يلوي على شيء.. اندفع إلى دوار الكولا.

كانت سيارة الاجرة تنتظر راكباً واحداً الى الدامور.. صعد اليها فانطلقت على الفور.. وفي لحظة من اللحظات كاد يطلب من السائق أن يتوقف. كاد يصرخ مثل انسان حقيقي جريح. كاد يعوي مثل ذئب حقيقي مثخن.

- 21 -

تعـود إلى الدامـور كجندي مهـزوم. تعود إلى الـدمع المـر والأمـل الذي لا يأتي، والأحلام المستحيلة.

تعود مثقلاً بضيق الصدر، وثقل الروح، وصعوبة التنفس.

الرطوبة الخانقة هجمت مبكرةً، ونهار صيف حارّ يعلن عن بدايـة ساخنة.

سجائر. . سجائر. الحلق جاف. كل شيء نـاشف، ولا يستطيـع حتى الماء المثلج أن يبل العروق وينعش الروح ويطرد اليأس الجاثم.

تمشي وحيداً. تتنقّل قدماك بصعوبة، كأنك تخـوض في مياه وهميـة. أمامك الناس. السيارات. الأطفال. الباعـة. الباصـات وأمامـك لا أحد. . . لا أحد. .

كـأنك تعـبر النفق وحيداً. كـأنك قـطار عجوز يحـترق في أعـماقـه الفحم الحجـري أو يحترق في أعـماقـه الكبـد والقلب والأوردة والـدم الحار.

أنت محاصر من الداخل. . محاصر من الخارج، فأين تذهب يا أحمد شرقاوي؟ لمن تقاوم. . لمن تستسلم؟

كيف تحقق صمـود النفس، وكبريـاء الرجـولة، فـلا تنفجـر مثـل القنبلة؟

فكر في العودة إلى الموقع. فكر في الذهاب إلى فرن الزهيري أو منزل الشايب.. ولكن من يستطيع أن يفهم آلامي أكثر منك يا سنيورة؟؟

طرق بابها وسرعان ما فتحت له الباب.

أطل وجهها الشاحب مثل مصباح ينوس وينوس في ليل مهجور. أطل وجهها كأنه يتراجع ويتراجع ويختنق فوق صفحته صوت البكاء.

دخل دون أن يقول شيئاً، ودون أن تسأل هي الأخرى. دخل الى الغرفة التي بدت اليوم نظيفة وأنيقة وشديدة الترتيب.

جلس على الأريكة. ثمة تغييرات حدثت على الجدران. خارطة فلسطين مطرزة باليد، وصورة قديمة ذات اطار قديم لا بد أنها كانت تحتفظ بها داخل الخزانة، صورة رجل كان لحظة التقاط الصورة في شرخ الشباب، ولا بد أنه أبوها.. وصور أخرى لزرافة طويلة العنق، وفراشات تفرد أجنحتها وزهور النرجس والقرنفل..

وفوق الوسائد كانت تنشر مطرزاتها، وفوق السرير كانت تنشر شرشف حرير، وعلى الطاولة الصغيرة كانت تنشر شغل سنارتها..

جلست قبالته، يالومضة الحياة رغم هذا الشحوب، يالومضة الحياة رغم هاتين الشفتين الزرقاوين!

ـ مالك تبدو منكسراً أيها الفتى..

ها هي تواسيك قبل أن تواسيها، تتودد إليك قبل أن تحاول التودد إليها.. ها هي السنيورة، مفعمة بالطيبة، وتفوح منها رائحة الانسان.

ـ أشعر بالحزن والكآبة. .

ـ هل هجرتك صديقتك مرة أخرى؟.

ـ هجرتني الروح المقيمة في جسدي.

ـ أنت متعب ومرهق وأشعث الشعر. . قم واغتسل.

ـ أريد فنجان قهوة.

وقفت. تلبس ثوباً فضفاضاً طويلاً. تلبس ثوباً قد رسمت عليه وردة، تنبت عند خصرها وتتفتح فوق صدرها الممتلىء.

شربت وشرب. . كان وجهها رائقاً رغم هذا الشحوب القسري. لعله التعب الكبير أو الهموم التي بحجم الجبال، لكن رغم ذلك يبدو أنها هذا اليوم صافية وهادئة وتنشر نظافة قلبها فوق كل شيء. .

خطر له أن يسألها عن سر هذا الترتيب الذي يراه في الغرفة والذي يذكره بالنقاء بعد المطر، لكنه سأل عن شيء آخر:

ـ أهو والدك؟

وأشار إلى الصورة المعلقة على الجدار، فأجابت:

ـ إنه والدي الذي لم أره أبداً.

وانتظر أن تسرد قصته، لكنها لم تفعل، ولم يشأ أن يرغمها على قول ما لا ترغب في قوله، لذلك احترم صمتها.

ثم انها قالت بعد حين:

ـ لم تخبرني-أيها الفتى. . ما الذي يقلقك؟

قالت ذلك، وسحبت الدبوس الذي تعقص به شعرها فانفرد. .

نشرت شعرها على كتفيها. . كان شعراً ناعماً شديد السواد،

فأصبح وجهها شهياً. . نشرت ملامحها المعاني الأليفة، وعند ذلك ودّ لو يقوى على أن يمد يديه ويمسك بيديها.

قلبت المجلة التي أمامها، ثم سألته:

ـ لا تريد أن تتكلم، إذن قل لي ما هو برجك؟

قرأت له حظه هذا الأسبوع، وكان في الوقت نفسه يقرأ ملامح وجهها، ولعلها لاحظت ذلك فابتسمت.

ـ هل يعجبك وجهي؟

ابتسم هو الآخر، وهزّ رأسه بالموافقة. .

فقالت له: قم واغسل شعرك الأشعث الأغبر. .

ـ هل أسخّن لك الماء؟

يفور الماء ويغلي. . وصوت البابور يختلط برائحة الكاز. .

دخل أحمد شرقاوي يغتسل. .

خلع بنطاله، خلع القميص، خلع سرواله الداخلي. .

دخلت السنيورة، وخلعت الفضفاض، اختلط الماء بالصابون، اختلطت الرغوة بالعرق. اختلط الكف بشعر الصدر، اختلط الساخن بالدافىء. اختلط الدافىء بالفاتر.

كان الخدر يجعل أحمد شرقاوي يرتاح ويغفو مثل حبة قمح تنام في باطن الأرض.

وعلى جدران الغرفة عبرت السنابل والزرافات وغزالة الصباح.

ـ أنت فلة. أنت وردة جورية.

وعلى جدران الغرفة عبرت الفراشات والعنادل وطائر الذهب.

دفنت رأسها في صدره. . كان لشعرها رائحة البراري.

ومن النافذة عبرت فوق جسديها النسمات التي تنتشل السنابل والزرع، فأحسّ أحمد شرقاوي بأن الأشياء تستيقظ من غفوتها.

تسلقت زنده وكتفه العريض. .

وعلى الجدار نبت النرجس والقرنفل وزهرة الثالوث. .

ـ أنت زمردة. أنت ياقوتة. . أنت لؤلؤة. .

ـ كف عن المبالغة وأعطني سيجارة.

أشعلت سيجارة ونفثت الدخان. . ثم سألته:

ـ أنت تغيب عني. . أين ذهبت؟

ـ هل أجاهر بأفكاري. .

هزت رأسها. .

ـ أعترف بأنني قررت أن أحبك.

ـ وصديقتك البيروتية؟.

ـ لن أستطيع أن أحصل على مساعدة زواج، لذلك فانها لن تنتظرني طويلاً. .

ـ إذن هذا هو السبب. .

ـ وفضلاً عن ذلك، فقد بدأت أميل إليك أكثر. .

قال ذلك، وقبّل جبينها وشعرها. .

قالت له: إننا نمارس سعادة جنونية. .

أجابها: كأننا نخشى على شيء ما من الزوال.

كان الجدار الأبيض ناصعاً مثل ريش الحمام. . وكان يحمل رائحة الكأس والتويج وغبار الطلع. .

وفجأة، انشق الفضاء وكاد يبتلعها. . عبرت طائرات حربية سرعتها تفوق سرعة الصوت، فاهتزت الغرفة، وانكسر زجاج النافذة. .

التصقت به أكثر فأكثر، ومرت لحظات طويلة قبل أن يستوعبا ما يجري. .

ـ لعلها غارة جوية. .

وجاءت أصوات انفجارات بعيدة وظل الرعد الحديدي يملأ الفضاء. .

ـ ربما تكون الغارة على الفاكهاني في بيروت. .

قفز من السرير.

هبطت عن السرير ولبست ثوبها الفضفاض، وقد ارتسم على وجهها الذعر. .

ـ لا تخافي. .

التصقت بصدره وكادت تبكي.

ـ هل ستذهب؟ .

ـ أجل. .

ـ إلى أين؟

ـ إلى موقعي. .

ثم ضمها وقبّل خديها وقال:

ـ لن يطول غيابي. .

خرج ومشى خطوات في الزقاق. .

أطلت من النـافـذة ونـادتـه.. ابتسمت لـه من وراء الأصص المزروعة بالنعنع والعطرة.

غمزها بطرف عينيه، ولوح لها بيده.. وراح.

- 22 -

حين امتلأ الأفق بالطائرات، لاذ المقاتلون واختبأوا في خنادقهم، ولاذ حمزة وراء صخرة كبيرة. ظلت الأجنحة الحديدية تذرع الفضاء وتسيطر على الفراغ كله.. يأتي سرب فيسحق الأفق القريب، ويزرع الانتظار. يزرع الترقب. كأن القصف سيطال الدماغ أو يذبح عنق القلب. تهتز الأرض عندما تفرغ الطائرات حممها، كأنها تقصف في دائرة نصف قطرها ذراع واحدة. تهتز الأرض رغم أن مكان القصف بعيد، وتسلب الطمأنينة من الانسان والنبات وأمواج البحر.

وتغيب الطائرات لحظات قليلة، يختفي هديرها الساحق هنيهة، فتسمع أصوات طلقات المدافع المضادة، ثم سرعان ما تعود معلنة عن أعلى درجات الغضب، تعود هائجة مزمجرة ماحقة.. ظلت الدورة تتكرر لنصف ساعة، ثم اختفت الطائرات فجأة، توقف هديرها مخلفاً وراءه الصمت، لاذ الصمت بالفرار أيضاً ثم استجمع قواه من جديد، وأطل برأسه خفة ووجلاً..

تجمع المقاتلون من جديد، وكان المساء يقترب.

ما أطول هذا النهار في هذا الصيف المبكر!

بدأ النهار يقضم أطراف الليل، بدأ النهار يطول ويزداد طولاً.. ومع ذلك كان المساء يطرق الأبواب..

ـ سقطت طائرة في البحر. . شاهدتها بأم عيني.
ـ لنعرف أولاً أين وقعت الغارة.
ـ بيروت. . الفاكهاني. .

وتسلم حمزة برقية فورية. . وقع القصف على المدينة الرياضية. سنوافيكم بالتفاصيل. الزموا الحيطة والحذر. . الحيطة والحذر. .

قال حمزة: بدأنا نلتقط على جهاز اللاسلكي العديد من محطات الارسال. .

قال حسن الأمجد: يبدو أنهم قادمون. .

أجاب حمزة الذي يستطيع أن يرى الأشياء بالعين المجردة والتحليل الصائب:

ـ أعتقد ذلك. .
ووصل اذ ذاك أحمد شرقاوي، جاء مندفعاً يركض أو يطير.
وصل وهو يلهث.
ـ ما الذي يحدث؟

وبعد قليل كان كل شيء واضحاً. اذن. . انهم يقصفون في العمق.

بدأ النقاش كالعادة حاداً ثم صار فاتراً..وظل حمزة يحتفظ بوجه عابس.

ما الذي يدور في ذهنه؟

ولأمر ما شعر أحمد أن قشعريرة تسري في بدنه تشبه قشعريرة مياه هذا البحر الأزرق. . البحر الشفاف، الطيب والمخادع، الذي يرسل

الرياح الطيبة ويرس الأعاصير الرهيبة. البحر الجديد الذي يستيقظ كل صباح والبحر الهرم الذي أوغل في القدم.

لأمر ما فكر أحمد شرقاوي بكائنات مملكة الماء. بالأصداف والنباتات والاسفنج والشعب المرجانية، بالسفن الغارقة منذ مئات السنين والبحارة الذين كتبوا أسماء حبيباتهم على الماء..

ولأمر ما لمعت، كانطلاقة القذيفة، في ذهنه صورة البوارج الحربية القادمة، البوارج التي توجه سبطانات مدافعها نحو هذا الشاطىء. كان يعرف أن هذا اليوم لا بد منه، وأن حمزة لا يعبس مثل هذا العبوس إلا إذا كان الأمر يتعلق بالتنصت لدبيب أقدام غول اللحظة التالية.

أحسّ أحمد شرقاوي بالتعب والجوع والنعاس في وقت واحد.. فحاول أن يهدهد التعب، ويسكت الجوع ويطرد النعاس.. لم يكن هناك من يمكن أن يتحدث إليه. لقد انصرفوا لإعداد وجبة العشاء..

جاءت العتمة، لكن القمر الوليد ونجومه المتناثرة، حوّل لونها إلى الرمادي.

أغمض عينيه، وفكر مرة أخرى بالسنيورة. اختفى الماضي كله، ورحل كل شيء، ولم يعد ثمة حضور الا لوجهها الذي شحب ثم تورد، لمسام جلدها الذي يتفتح كما تتفتح البراعم..

تخيلها تخرج من الماء وقد غسلتها الأمواج، غسلت شعرها، وشحمة أذنها، وحلمة ثديها، واستدارة سرتها، تخرج من الماء كما يخرج اللؤلؤ من الصدف، وتحمل معها رائحة الرخسيات والطحالب والأعشاب. تحمل معها ما تيسر من رحيق الأزهار، وعطر الليمون،

ومذاق الشهد، تحمل معها سر الليل وتمتطي صهيل الليل، وتشعل النار في خاصرة الليل..

وأخيراً، هدّه النعاس، ونام.

نامت زليخة باكراً هذا المساء.

علفت دجاجتها، وسقتهـا، ثم فرشت لنفسهـا فرشـة الصـوف، ونامت.

كان القصف قد سبّب الذعر لدجاجاتها، وفي الوقت نفسه ادخـل الوجل الى قلبها.

عندما توقفت الطائرات عن القصف، خرجت تسأل عما يحدث.

كانت الشوارع خالية. لا صـوت ولا أحد، تمـر قطة أو يمـر كلب ضال. وبين فترة وأخرى يمـر أحد الـرجال المسلحـين. من شارع إلى شارع..

المحلات اغلقت أبوابها، وحرس المكـاتب يجلسون عـلى الكراسي ولا يذرعون الرصيف، كأنما أدركهم السأم.

تـوجهت إلى فرن الـزهيري. الأضـواء مطفـأة، والبشكـار فـرض (طـراحته) أمـام الباب وأغفى عـلى غير عـادة. الأزقـة معتمـة ويمكن للمرء أن يتعثر بالكآبة وسوء الحال. يمكن للمرء أن يتوقع السقوط في حفـرة أو عـزلـة القلب النـاشف، يمكن للمـرء أن يتـيه في صحـراء الوحدة.مرت أيضاً على منزل الشـايب. طرقت البـاب.. لا أحد.. لا الشايب ولا كلبه. طرقت الباب. دقت بكلتا يديها..

مشت في الأزقة المعتمة.. مرت أمام منزل (أبو العسـل).. كانت

تعرف أنهم ذهبوا إلى مخيم صبرا ليكونوا بالقرب من المستشفى، كانت تعرف أن الحصان الهرم نقل إلى البستان ليكون في رعاية (الحجاوي) الرجل الذي يشرف على البستان بعد حادث الاعتداء. رغم ذلك طرقت الباب. طرقته بلطف، ربما يكونون قد عادوا فجأة لتفقّد المنزل، ربما جاء أحدهم ليأخذ بعض الحاجيات، لكن لم يرد أحد.

مشت في صحراء الليل والبيوت الفارغة والأشياء المهجورة. أين يذهب المرء في ليلة تخلو من الحياة؟

مشت على غير هدى. شاهدت بعض الرجال يعبرون ويحملون البنادق..

- أين أنتم.. إلى أين تذهبون..

رد أحدهم. رد شاب يافع يحمل البارودة، ويتكلم بحماس..

- الجميع يذهبون إلى الكمائن.. يذهبون إلى المواقع المتقدمة.. يذهبون إلى الشاطىء.. القيادة أعلنت حالة الاستنفار القصوى.. الوضع خطير.. عودي إلى منزلك يا زليخة.. ربما يقصفون البلدة هذه الليلة.. الناس ينامون في الملاجىء.. بعض الناس هجروا البلدة إلى القرى القريبة. اذهبي إلى منزلك يا زليخة وكوني حذرة..

قال ذلك، ولحق بالرجال الذين كانوا قد واصلوا السير..

عادت زليخة تجرجر قدميها. عادت تنوء بأعوامها الخمسين. عادت تحمل هماً ثقيلاً ووجعاً في الروح، وكآبة بحجم التلال.

فتحت الباب، أضاءت المصباح، كانت الدجاجة جاثمة. عندما دخلت زليخة تململت، ثم وقفت ورفرفت بجناحيها. كأنها طفل

صغير، وعند ذلك خفق قلبها، هجم الحنوّ والبكاء، وغرغرت عينا زليخة بالدموع.

علفت الدجاجة، وسقتها الماء، ثم فرشت فرشة الاسفنج، ونامت.. نامت نوماً متقطعاً، تغفو ثم تصحو.. يرهقها النوم. يرهقها الصحو.. تتذكر ليلة العاصفة البحرية، ليلة الرياح المجنونة التي اقتلعت جذور القلب، تغلي في أعماقها رياح القلق، تغلي وتفور.. تهجم عليها الذكريات.. تسمع دقات أقدام زوجها (أبو كامل).. تسمع نقرات عصاه على الباب. تقوم وتفتح الباب.. لا أحد لا أحد.. تعود إلى فراشها، وترهف السمع.. ومرة أخرى تسمع وقع أقدامه الثقيلة.. تسمع نقرات عصاه على الباب..

ترهف السمع. تحبس أنفاسها.. لعلها روحه ترفرف حولها في هذه الليلة القاسية. لعلها روحه تقترب وتقترب لأنها سئمت من الوحدة فجاءت تبحث عن أنيس.

عادت ليالي السهر..

عاد البحر وردة سوداء أو رمادية.

تتمطى الأمواج وتتثاءب، ويظل الحوار دائراً في الكمائن بين الشباب، يظل الجدل يتواصل بين المد والجزر، يظل الماء المالح يغسل بالرغوة رمال الشاطىء أو صخوره الناتئة.

ويظل الزهيري يتقن الصحو، والرجل الذي لا ينام يدب فيه النشاط والحيوية، وينتظر أن يطلق طلقة في جبين المجهول الذي قد يأتي عبر هذا البحر الغامض.

ـ يغيب عنا (أبو العسل) لأول مرة..

يقولها ثم يلف الزهيري جسده بمعطف ثقيل، يتدثر به ويحدق بالرمادي الذي ينطلق على سجيّته.

ينفث الشايب الدخان، ثم يقول:

ـ عجباً لأمرك يا زهيري.. تتدثر بهذا المعطف الثقيل في عز الصيف.. صدق الذي قال انك ولدت أمام شعلة من اللهب.

الزهيري لا يقوى على البرد. يظل جسده دافئاً. لقد اعتاد على الدفء والوهج والنار الموقدة.

في ليالي الاستنفار يتدثر بمعطفه جيداً تحسباً من برد آخر الليل، فينظر إلى البحر، ويطلق لخياله العنان.

ـ هل تعتقد أن هذا البحر سيتشعل باللهب بين لحظة وأخرى؟

سأل الزهيري، إلا أن الشايب كان يفكر بأشياء أخرى..

كان يتذكر في تلك اللحظة ليلة الهجوم على القرية عام ٤٨.. ومرت أمامه صور المجاهدين الذين شاركوا بالمعركة وكان من بينهم صديقه الشركسي.. الشركسي الذي كان يقاتل وهو واقف، والذي فقد في المرة الأولى يده، وفي الاصابة الثانية عينه، وفي الاصابة الثالثة ساقه..

ـ وماذا حدث للشركسي فيما بعد؟

ـ صار لاجئاً مثلي. التقيته في عمّان عندما كنا نجتمع أمام ساحة فيلادلفيا.. رفض أن يشمله الاحصاء ورفض بطاقة التموين من وكالة الغوث..

«وذات صباح بحثنا عنه فلم نجده.. نقلونا بواسطة الترين (القطار) الى المفرق.. كان قطاراً يجر وراءه عشرات العربات، لعلها عربات من النوع الذي تحمل فيه الخيول أو الماشية، فانطلق بنا عبر الصحراء وهو يهز معه عظامنا.

«أنزلونا في المفرق. وهناك عند المحطة وجدته يتوكأ على عكازيه ويتأمل القادمين.. لعله كان يبحث عن شخص أضاعه.. اقتربت منه وطرحت عليه التحية..

«فقال: لماذا جئت إلى هذا المكان البعيد.. يلعن الترين اللي جابك.

«كانت الحرب قد تركت بصماتها على كل جزء من جسده، ومع ذلك ظل يتمتع بروح عالية، ويميل إلى الدعابة، ويتحدى اليأس.

«سألته: ماذا تفعل هنا؟

«أجاب: انتظر القطار الذاهب إلى درعا، لا أستطيع البقاء في مكان لا يعجبني..

«ظللت واقفاً معه إلى أن جاء قطاره. فساعدته على الصعود، لكنه قبل أن يصعد همس في أذني.. أخبرني عن المكان الذي خبأ به بندقيته. قال لي ربما تحتاجها ذات يوم، لذلك ستجدها نظيفة صالحة للاستعمال. لقد دهنتها بالشحم حتى لا يعلوها الصدأ، وخبأت معها مجموعة من أمشاط الرصاص.. ثم ركب القطار ومضى»..

ـ ألم تره بعد ذلك؟..

ـ لا.. الله وحده يعلم أين ذهب وماذا حل به.

توقف عن الكلام قليلاً.

ثم قال الشايب فجأة: هل تسمع؟

ـ ماذا؟

ـ هدير الحوّامات

ـ إنهم يستطلعون الشاطىء.

ـ سنكون لهم بالمرصاد

ـ هل تعتقد أن. .

ـ صه. . الأصوات تقترب.

كان أزيز طائرة مروحية لا تكف عن الدوران. لم تكن تظهر ولكن الصوت يقترب. . رائحة الليمون تختلط برائحة البحر. . رائحة الرطوبة وما يطرحه البحر من زبد يختلط برائحة الخطر.

يكبر الفراغ ويفتح فكيه على سعتهما. . وفي هذه اللحظات ما أحوجك أيها الشايب إلى سيجارة تلفها بيديك!

ومن جديد تعود صورة الشركسي إلى مخيلته، لماذا يعود ذلك الرجل الشرس ويعيش من جديد في الذاكرة؟ لقد كان محطماً للغاية، ولكنه همس في أذنك وأخبرك عن المكان الذي دفن فيه البندقية. رحل. . أين رحل. . يلعن أبو الترين الذي أخذه. . يسمع الشايب من بعيد نداء الأرض، شيء حار ودافىء يجعله ينصت ملياً لنداء الأرض، شيء يشبه رنين جرس الكبش الذي لا ينقطع في رأس راعي غنم متقاعد ذات ليلة صيفية.

تفقّد حزة الكمائن المتقدمة.

كان يستطيع أن يقرأ حالة الطقس بالعين المجردة، ويعرف الآن أن كل شيء لن يكون على ما يرام.

الهدير يتواصل في العمق، هدير مثل طنين النحل. أصوات رتيبة طالما اعتاد عليها في ليالي الاستنفار.

برقيات العمليات المركزية تمرُّ عبر جهاز اللاسلكي إلى كافة المواقع. . كل الاحتمالات واردة، وليس لهم من منفذ إلا البحر.

البحر الكبير الذي يغلي ويفور. البحر الوافر، الغاضب، الأنيس، المنبسط، الأزرق، الأسود، المانح، المانع، الواهب، المتكبر. .

شعر حمزة بوجع في العينين. . سهر متواصل منذ ليلتين. لا تنام ولا ينام معك السمك، لا تنام ولا تنام معك النجوم.

الفجر الصادق يقترب. . أجرى اتصالات على الجهاز مع قيادة القوات، أجرى اتصالات عبر المحطة الرئيسية لقيادة القوات، مع مواقع الجية، ومواقع الدلمية، ومواقع تلة المشرف. . العين ساهرة من ملتقى النهرين إلى الدوحة. .

الفجر يقترب، الطبيعة تتنفس، النباتات تهضم غذاءها والعصافير فوق الأغصان بدأت تصدح نشيد الصباح المعتاد.

انبجس آذان الفجر فامتلأ حمزة بالهدوء والسكينة، عاد إلى خيمته وتمدد على السرير. وظل يراقب اغصان شجرة الليمون. الندى يتعلق بلحاء الشجرة. الندى كالبلّور يجمع ألوان الطيف.

ثم فوجىء إذ فاجأته أول حزمة شمس تبزغ في هذا الصباح. .

تسقط على الأوراق عدة كرات من الندى. . تسقط قطرة فقطرة. تبلل الجعب المتناثرة. تبلل ماسورة البندقية.

يتذكر حزمة الكون الزمني، وخطوط التاريخ، والطيف الشمسي..
يتذكر الفكرة الصغيرة أو الكبيرة.. يتذكر الخط السياسي..
ينتمي إلى اليقظة والانتباه، ويفكر جاداً بغفوة صغيرة.

- 23 -

عاد الزهيري بمعطفه القديم، وشعره الأشعث، وذقنه الخشنة.

يحمل البندقية ويحمل الهموم المبعثرة.. الهموم الملقاة على قارعة الطريق والهموم التي استوطنت منذ زمن في أعماق القلب.

يتعثر بالنعاس، وبالوسن الذي حط على الجفون، وبدبق رطوبة شديدة اللزوجة.

عاد الزهيري [٠٤٢]، يعود من وعثاء السفر، وينوء تحت ثقل التعب والارهاق.

طرق الباب، ودخل بيته. كانت زوجته قد نهضت لتوها، فهي ما تزال تلبس قميص النوم، وما تزال تتثاءب وتفرك عينيها.

وقفت إلى جانبه تتناول معطفه الثقيل، وبندقيته.

ـ الماء ساخن يا زهيري، ادخل إلى الحمام واغتسل.

قالت ذلك وقبّلته. لامس خدها شعر ذقنه. خدها دافىء، وقبلتها حسّنت وضعه إلى حد ما.

ـ لماذا تعبس إلى هذه الدرجة يا رجل؟

قالت ذلك واحتضنته. أحاطته بذراعيها المكشوفين وضغطت بصدرها على صدره العريض.

قبّل شعرها، وقال باختصار:

ـ متعب. . وجائع.

قالت: ـ لقد واصلت النهار بالليل ولم تأخذ قسطك من الراحة. .

أزاحها بلطف، ومشى إلى الحمام، خلع قميصه وسرواله، كان الماء ساخناً.

الزهيري لا يغتسل إلاّ بالماء الساخن، لا يحتمل الاغتسال بالماء البارد، ولا حتى بالماء الفاتر.

الزهيري يحب الدفء. عاش عمره أمام بستان اللهب. الزهيري لا يطيق البرد والصقيع ولا يقوى على ذلك. .

قال لها: أغتسل وحدي، ولكن جهزي طعام الافطار.

اغتسل الزهيري. غسل شعره الطويل، طرد الدبق والرطوبة، دعك جسده بالليفة والصابون فتفتحت مسام جلده، ورحلت عن صدره بعض الغيوم السوداء.

لبس ملابس داخلية نظيفة، ولبس البيجامة الزرقاء. صينية الافطار جاهزة. تربع على الأرض. لبنة. زعتر وزيت. بيض مقلي. جبنة حلوم، وخير الله الكثير. . أكل وشرب الشاي، ثم قدمت له سيجارة وأشعلتها كما تناولت سيجارة أخرى وأشعلتها لنفسها. . إنها لا تدخن، ولكن عندما يكون المزاج رائقاً تدخن معه سيجارة على سبيل الدلع. ثم قبلته في خده، كانت صغيرة. . قطة، وكان كبيراً وضخماً فتكاد تضيع في صدره.

قال لها: والآن. . أريد أن أنام.

السرير نظيف ومرتب. الوسائد المطرزة نظيفة ورائحتها طيبة. الأغطية مغسولة وشديدة البياض.

ـ رائحة غسيلك الطيبة تفوح كالعطر.

ـ وفي البيت رائحة حنوّك.

إنتبه إلى أنها تعلق بدلته الكحلية على المشجب خارج الخزانة.

ـ هل أمامنا سفرة قريبة؟

ـ أجل..

ـ إلى أين؟

ـ إلى بيروت..

ـ لماذا؟

ـ سنذهب لحضور خطوبة أختي سميرة.

ـ عليّ أن أستأذن..

ـ من؟

ـ قيادة الميليشيا..

ـ يا رجل هل أنت وحدك المسؤول عن حماية الثورة؟

ـ لم أتخلّف عن الواجب مرة واحدة.

ـ وإذا لم يسمحوا لك بالمغادرة؟

ـ تذهبين لوحدك.

ارتسم على وجهها الحنق. لم يشأ أن يجعلها تكتئب، فمسح شعرها وقال:

ـ على كل حال سأبذل جهدي وربنا يسهّل.

قال ذلك وأغمض عينيه.

جلست على حافة السرير. . أرادت أن تأخذ منه جواباً حاسماً.

- ولكن أمي سوف تزعل إذا لم نذهب.

تململ الزهيري، الحليم. . واسع الصدر. . وكاد يعلن لها أنه ضاق ذرعاً بالحاحها.

- أريد أن أنام وبعد أن أستيقظ نتحدث في الموضوع.

- عليك أن تقرر الآن لكي نذهب باكراً إذ يجب أن أذهب إلى الصالون وأسوي شعري.

فتح عينيه وكاد يصرخ في وجهها، ولعلها شاهدت ألسنة الغضب تكاد تندلع فوق صفحة وجهه، فتراجعت، وصمتت، وانسحبت من الغرفة.

وعند ذلك هرب النعاس، وداهمته الكآبة.

تقلب على الفراش. حاول وحاول ولكن عزّ النعاس، وأخيراً استسلم لليقظة المرهقة.

استسلم للأرق الذي لا مفر منه.

ظل يحدق في سقف الغرفة، ربما ساعة أو أكثر قليلاً، واقتنع بأنه لن يستطيع أن ينام، وما دام الأمر كذلك فلا بد من مراضاة المرأة وتطييب خاطرها.

ألقى بالغطاء جانباً، ونزل عن السرير.

كانت تجلس في الغرفة الأخرى، وتشغل نفسها برتق جواربه. . يعرف أنها تحبه وتحبه ولا تكف عن حبه، ولذلك، فحين اقترب منها ومسح شعرها بيده انفجرت بالبكاء. ظل يهدهدها. ضمها إلى

صدره. قبل شعرها مرة وثانية وثالثة، وحين توقفت عن البكاء، قال لها:

ـ هيا.. جهزي نفسك، نذهب باكراً ونعود باكراً قبل أن يحين موعد النوبة المسائية.

مسحت دموعها وخرجت إلى غرفة النوم لتصلح من شأنها

حلق ذقنه، ومشط شعره، وأصبح مهيّأً للسهر أو السفر، أما هي فقد سرحت شعرها الطويل، ووضعت مساحيق التجميل فأضاء وجهها وسطعت عيناها الواسعتان.

لبست فستانها الأبيض الطويل، وقالت له:

ـ بدّل ملابسك وهيّا ما دمنا سنعود باكراً.

خلع الزهيري بيجامته الزرقاء. ولبس القميص الأبيض. لبس البدلة الكحلية، التي لا تخرج من الخزانة إلا في المناسبات، والآن جاء درو ربطة العنق..

ـ لا أستطيع أن أربطها..

قالت له: ـ متى تتعلم ربطها زهيري؟

كان قد حاول في الماضي أن يتعلم كيف يعقد ربطة العنق ولكنه كان ينسى وينسى ولا يتعلم..

ـ هل أرسلها إلى المكوجي لكي يعقدها؟

ـ لا داعي لذلك.. سوف أضعها في جيبي، وهناك يعقدها أخوك قبل وصول الزوّار.

اتفقـا إذن. لم يبق سـوى لبس الحـذاء.. لم يبـق سـوى لبس الصندل.. لم يبق سوى ركوب السيارة..

وفجأة طرق الباب..

طرق الباب طرقاً شديداً.

انقبض الزهيري، وعبست المرأة.

فتح الباب، أطل من ورائه وجـه البشكار، مساعده ويـده اليمنى في الفرن.

ـ ما الذي حدث يا ولد؟

كان وجه البشكار داكناً، ويقفز من عينيه خوف له مخالب:

ـ تكلم، ماذا جرى؟

قال البشكار وهو يلهث:

ـ لقد بدأت الحرب.

ـ كيف؟

ـ دخلت جيوشهم ووصلت ضواحي صور ومخيم الرشيدية..

ـ عد إلى الفرن، وسوف ألحق بك بعد قليل.

أغلق الباب. كانت المرأة قد سمعت الحديث كله.

نظر إليها ونظرت إليه. تلاقت العيون..

قرأ كل منهما في عيني الآخر الخوف من المجهول، وكظم خوفه.

قـال لهـا: لا تخـافي.. ربمـا يكـون الهجـوم محـدوداً مثـل المـرات السابقة.

كان وجهها قد انطفأ وخفت ضوء عينيها، فالتصقت به..

هجم عليه مزيج من القلق والخوف وشعر بأنه يضعف..

قالت له: لا تقلق يا زهيري. . سنذهب إلى بيت أهلي في يوم آخر. .

قال لها: اذهبي أنت،وسوف أرسل معك البشكار لكي يطمئن قلبي. .

ـ لن أذهب. . وسوف أبقى إلى جانبك.

ـ لن أكون في البيت لأن الاستنفار سيطول هذه المرة.

ـ سيكون في البيت رائحة حنوّك وصفاء روحك.

وتحت وطأة الصمت الثقيل خلع الزهيري بدلته الكحلية.

خلع القميص الأبيض. ألقى ربطة العنق على المعقد. .

ومن جديد، لبس بدلة الكاكي، وحمل البندقية وقال لها قبل أن يخرج:

ـ ساعود بعد قليل. . سأحاول أن أشرح لك ما يحدث أولاً بأول. . . وكوني شجاعة كما عهدتك.

قال ذلك، وشرع في الخروج، فأوقفته. .

ـ انتظر. .

ـ لماذا. .

غابت قليلاً، ثم أحضرت من الخزانة كنزته الصوفية.

ـ احملها معك. . أنت لا تتحمل برد الليل، ربما لا أراك قبل صباح الغد. ليكن الله معك.

وحين ابتعد الزهيري، انبجست الدموع من عينيه، ومن خلال الغبش خيل إليه أن في الشوارع حركة غير عادية. . .

- 24 -

ـ إنها الحرب. . إنها الحرب الشاملة.

ـ كثافة في الغارات، وأجهزتنا بدأت تلتقط شبكات لاسلكي جديدة وكثيفة للعدو. .

ـ عبرت الدبابات متوجهة إلى صور.

ـ القتال ضارٍ على مداخل البرج الشمالي ومخيم البص.

الاذاعات تبث الأخبار. الاقبال على الشراء والتخزين. الطوابير طويلة أمام فرن الزهيري، وأمام ملحمة الصدق، ومحلات البقالة.

يمشي الشايب في الشوارع المرتبكة، يرى الناس وحركاتهم المضطربة، فيشم رائحة الكارثة قبل وقوعها وتسري في جسده قشعريرة الخطر.

السيارات لا تتوقف. اليهود قادمون. الشائعات لها بداية وليس لها نهاية.

عبرت سيارة مدنية قادمة من صور محملة بالعفش الخفيف والغبار، جاءت بالأخبار المخيفة، وحمّلت الأمور أكثر مما تحتمل.

مبالغات. . مبالغات. يبلغ التوتر ذروته.

في الواحدة والنصف تعلن الأخبار عن هجوم على محور النبطية الرقعة، تتسع قوات الطوارىء تعجز عن منعهم، والمواجهة الآن في قلعة الشقيف.

ـ هل تعرف أين مقر العقيد سلطان؟
ـ طائرات الاستطلاع لم تتوقف عن التصوير، لذلك فان القوات قد بدّلت مواقعها.

يشم الشايب مجدداً رائحة الخطر. الحرب قادمة.

تهجم باكراً بثقلها. تهجم جنازير الدبابات، تأكل أسنانها الحادة اللحم البشري، تبقر بطن الأرض، تدوس بأظلافها الفضاء الساكن، وتكبّل الأفق وتشعله باللهب.

يمشي الشايب ويحدق بالوجوه القانطة. انهم يخافون من المجهول، يخافون مما يخبأ لهم وراء الغيب، يخافون أن تسقط صخرة المجهول فتصيبهم أو تصيب آخرين..

تعود من جديد دورة التهجير والظمأ وربما الموت البشع الذي ليس له مثيل.

لكن أولئك الذين يحملون البنادق يبدون أقل خوفاً، يشترون الحاجيات والطعام لتأمين عيالهم قبل أن يذهبوا إلى المواقع..

السيارات العسكرية تذرع الشوارع، سيارات الاعلام الجماهيري تعلن عن تعليمات الوقاية ومكافحة الحرائق، وعلى الحيطان يكتب الخطاط فايز الذي يتقن أيضاً المصارعة ورفع الأثقال شعارات الصمود والمواجهة..

ـ إنها شعارات لا يقوى على رفعها إلا أولئك الذين يستطيعون رفع الأوزان الثقيلة.

يتقافز بعض الصبية ويلعبون، كأنهم لا يعرفون ما يدور حولهم، يلعبون أو يغردون كالعصافير، وفي هذا الجو المشحون لا يتلفت إليهم أحد.

ينظر إليهم الشايب بحنو، ويشعر بالحسرة. يتنهد.

لو جاءني أولاد لكانوا قد تزوجوا وأنجبوا أطفالاً مثل هؤلاء الأطفال. كانت الحاجة فاطمة تقول لي تزوج غيري وأنجب ولداً يخلّد ذكرك.

لم تكن الحاجة فاطمة عاقراً، صحيح أنها لا تنجب ولكنها مفعمة برائحة الخصب والنقاء والطيبة، لذلك لم أتزوج عليها، وحتى بعد أن رحلت لم أفكر بسواها..

كان الشايب يحكي مع حاله. يخاطب الرجل الوحيد الذي رافقه طوال العمر، لقد عاش طويلاً بلا أصدقاء، وكان هو صديق نفسه، لذلك فعندما يحكي مع حاله فكأنما يحكي مع صديق قديم. من يجبر عثرة القلب الكسير، ومتى يعبر الهواء الطلق بدلاً من الريح المسمومة، متى تمدّ لك الأيام جدائلها لتنتشلك من أعماق بئر العزلة؟

مشى الشايب ومشى.. إلى أين؟

شعر بالتعب، وما زال الوقت مبكراً..

نوبة الحراسة الليلة لما تحن بعد، فخطر له أن يعود إلى بيته، فيستلقي، ويستمع إلى نشرات الأخبار، ثم يغمض عينيه لعل النعاس يأتي سهواً..

استدار الشايب وقفل راجعاً باتجاه البيت.

كانت تجلس أمام الباب، وكانت تصطحب طفلها. وجهها ممتقع، ووجه الطفل يطل منه الذعر.

ما الذي جاء بها.. أهذا أوان الزيارة؟

عندما شاهدته بكت، والتصق بها طفلها.. صار لها وجه حزين. الوجه نفسه الذي رآه حين شاهدها لأول مرة بعد أن زارت قبر زوجها.

فتح الباب، وقال:

ـ تفضلي بالدخول يا ابنتي.

دخلت. جاءت للتو من صيدا. حكت عن القصف والفظائع والأهوال.

جاءت هاربة بولدها. كل شيء يضيع، وليس لها أحد. أغلقت في وجهي الأبواب، أيها الوالد، فلم أجد سوى بابك..

ـ على الرحب والسعة يا ابنتي..

ـ أعيش معكم وأبحث عن عمل، وأظل قريباً من قبر زوجي الذي غسلته بيديك الطاهرتين أيها الوالد.

رق قلبه وكادت الدموع تطفر.. هل سيتوقف زحفهم عند صيدا؟ إنهم في الطريق إلينا أيتها المرأة.. إنهم في الطريق إلينا، فالى أين تذهبين بعد ذلك؟

نام الطفل، وظلت قلقة. أصابعها ترتجف.. كم من الرعب يملأ قلبها؟

نم أيها الطفل وخذ قسطاً من الراحة قبل أن تصل الحرب إلى الدامور. نم قبل أن تحترق بساتين أحلامك، قبل أن تحوّل القذائف رؤوس الأولاد إلى فحم أسود.

ـ كيف جئتما؟

ـ مشينا وتعربشنا بالسيارات. . وشاهدنا الموت بأعيننا.

ـ إذن. . خذي قسطاً من الراحة ونامي.

ـ لن أستطيع النوم أيها الوالد. . لن أستطيع النوم.

وعند ذلك استيقظ الكلب الهرم الذي كان يغط في النوم، فتح عينيه ونظر في أطراف الغرفة نظرة حيادية ليس لها معنى، فقال الشايب:

ـ ربما تصلنا الحرب. . لن يكون هذا المكان أكثر أمناً من مخيم عين الحلوة.

ـ أنا وحيدة أيها الوالد وليس لي أحد. وإذا كان لا بد من الموت فلتكن مشيئة الله، ولكن أوصيكم بولدي. . أوصيكم بهذا الطفل الذي ليس له من معيل سواي. .

قالت ذلك وانخرطت في البكاء. .

ـ كفى. . كفى أيتها المرأة الطيبة. . ليكن إيمانك بالله كبيراً.

وعند ذلك، ارتسمت الدهشة في عيني الكلب الهرم، وأعلن عن تعاطفه بأن هزّ ذيله، وصدر عنه صوت مكبوت لعله يشبه البكاء الانساني. .

قام الشايب، وفتح النافذة. وصوب بصره نحو البحر. البحر الهادىء الذي يغلي ويفور في الأعماق. البحر البركان الذي ستنبجس منه الحمم بين لحظة وأخرى.

كان يشعر بالحدس بأن الأمور ستنقلب رأساً على عقب، وأن هذا الهدوء كاذب ولا بد مما ليس منه بد.

وأحسّ في الوقت نفسه بأن عليه أن يفعل شيئاً من أجل أن يعيد لها الطمأنينة، أن يقول كلمة ما تريح نفسها.

ـ على كل حال أهلاً وسهلاً بك، أنا مسرور لمجيئك.

ثم أضاف:

ـ وسيكون حمزة مسروراً كذلك، لقد كان يسألني عنك باستمرار.

كان يعرف أن ذلك يريحها، كان يعرف أنها تحتفظ له بمشاعر إنسانية حارة في أعماقها. مسحت دموعها، وأسبلت جفنيها، وظلت تسند ظهرها للحائط. وجهها متعب، وشعرها أشعث.. أغبر. تنوء تحت تعب لا يطاق، وربما تحلم بصدر واسع تلقي برأسها فوقه، ربما لا تحلم إلا بشيء من الخوف.

صمت الشايب. وخيل إليه أنها تشرع في النوم رغماً عنها. مال رأسها قليلاً وبدا جلياً أنها تأخذ غفوة. غفوة قسرية ربما تطرد التعب والخوف من بدنها.

قال الشايب بينه وبين نفسه: عليّ أن أتركها تغفو قليلاً.

ثم وقف أمام النافذة وعاد ينظر إلى البحر.

لحظات تذكره برهبة الموقف ليلة الهجوم على القرية عام ٤٨..

كان في الخندق، يمد ماسورة البندقية وينظر من خلال (الطلقيّة) باتجاه الكومبالنية التي سيأتي من وراء اسوارها اليهود.. كان يكمن وحيداً لا يعرف ماذا يفعل. ينتظر فقط الأوامر باطلاق النار. وبين حين وآخر كان الضابط العراقي الذي جاء مع جيوش الانقاذ يمر مرور الكرام، فيسألونه ما هي الأوامر، ويرد عليهم باقتضاب: ماكو أوامر.

وعندما انتصف الليل، جاء الشركسي، جاء ببشرته الشقراء، جاء يدخن سيجارة.

التدخين كان ممنوعاً، لكن الشركسي كان يدخن علناً.

ـ ماذا تفعل هنا؟

قال الشركسي، فأجبته بأنني أنتظر الأوامر.

كان الشركسي شاباً، له جسم رياضي، وجهه أشقر وعيناه زرقاوان، ورث ذلك عن أجداده الذين جاؤوا من القوقاز هرباً من الظلم والابادة، وجاؤوا إلى بلادنا المقدسة، وعاشوا مع الفلاحين، وحصلوا على الخبز بعرق الجبين، واندمجوا في حياة القرية، وإن كانوا في المناسبات السعيدة يرقصون رقصاتهم الخاصة ويملأون القرية صخباً وضجيجاً..

قال الشركسي وهو يلقي بعقب السيجارة:

ـ متى تأتي الأوامر..

ـ الضابط يقول ماكو أوامر.

لعل الشركسي في تلك اللحظات كان يفكر بالظلم والابادة التي ستتعرض لها عائلته مرة أخرى، لعله كان يفكر بالمنفى الذي سيلجأون له.. بالجوع والمرض. لعل قصص العذاب والمعاناة التي يرويها الأجداد إلى الأحفاد ما زالت في مخيلته.

فقال الشركسي: ولماذا ننتظر الأوامر؟؟

قلت له: فما الذي نفعله إذن؟

قال الشركسي: لا ننتظر أن يصلونا وأن نتلقى الأوامر للدفاع عن. أنفسنا، نبادر نحن ونهاجمهم. نتغدى بهم قبل أن يتعشوا بنا.

ثم أخرج من جيبه قنبلة.. كنا نسميها رمانة لأنها كبيرة بحجم الرمّان، وقال لي: اسمع سأذهب إليهم.. سوف أتسلل إلى كمائنهم وألقي بهذه الرمانة عليهم. وعليك أن تساعدني إذا ما حدثت مفاجأة ووقعت في مأزق.

قال ذلك وقفز من الكمين إلى الأرض المزروعة بالبطيخ، ثم غاب واختفى في العتمة.

وبعد نصف ساعة حدث انفجار رهيب أشعل الليل كله.

وعندما عاد الشركسي والدم يسيل من مرفقيه وركبتيه بسبب الزحف فوق التراب والحصى والأشواك، أرسل ضابط جيش الانقاذ من يعتقله ويكبل يديه لأنه هاجم العدو بدون أن تصدر له الأوامر.

عجباً! ؟ قال الشايب في نفسه: لماذا تتسلل ذكرى الشركسي إلى ذاكرتي بعد هذه الأعوام الطويلة..

كأن الأيام تتشابه.. كأن التاريخ يكرر نفسه..

استدار عن النافذة. ما زالت المرأة غافية، والصبي يتنفس وينام نوماً عميقاً. والكلب يبسط ذراعيه ويغفو أيضاً.

خذو راحتكم. تمتعوا بالنوم والاسترخاء، فعمّا قريب ستزلزل الأرض زلزالها.

عمّا قريب تأتي الرعود والصواعق وحمم البراكين.

- 25 -

انـدفعوا يعملون بقـوة. لا كلل ولا سأم، لا حـديث إلا حـديث الأيدي، أنزلوا صناديق الذخيرة من السيارات الشاحنة.

حملوهـا عـلى أكتـافهم. . غـاص ثقلهـا في اللحم فلم يتـذمـروا، حملوها من الشاحنة إلى الكمائن الجديدة. رصاص كلاشن، وقـذائف آر. ب. جيه، وقنابـل دفاعيـة وأخرى هجـومية، وصـواعق ملفوفـة بعناية، وألغام ضد الآليات. . وقذائف خاصة بمدفع عيار ٨٥.

واصلوا العمل ولم يطلبوا استراحة، تسابقوا على تفريغ حمولة سيارة (اليونيمك) الكبيرة. كان سائقها الـذي ينتظر أن ينتهـوا من تفريغهـا يراقبهم بحذر خوفاً من أن يسهو أحدهم ويشعل سيجارة. .

ـ عليكم أن تسرعوا أيها الاخوة قبل أن تسقط قذيفة فوقنا، عندئذ فإن حمولة السيارة تحوّل المنطقة كلها إلى جهنم الحمراء.

وردّ عليه أحمد شرقاوي الذي كان يلبس هذا اليوم على رأسه قبعة زرقاء تشبه قبعات المراقبين الدوليين.

ـ حلمك علينا يا خال، ربع ساعة فقط.

أما حسن الأمجد، الذي يلبس هذا اليوم بدلة عسكرية مرقطة فقد قال بلهجته الغورانية القريبة من لهجة البدو:

ـ أبشر يا خال، وما يحرث الأرض إلاّ عجولها.

كان سائق سيارة (بونيمك) الشاحنة قد اعتاد على نقل الأسلحة والذخيرة أثناء المعارك، ولقد واجه مئات المآزق في الماضي، ولكنه هذه المرة يتوجس خيفة..

- أسرعوا فأمامي مشوار إلى بيروت، ويجب أن أعود قبل حلول الظلام..

- وماذا ستفعل في بيروت؟

- سأحضر سيارة طحين من أجل استمرار تأمين الخبز.

- أحياناً يكون للرغيف أهمية الرصاصة.

وأثناء ذلك كان حمزة يفتح الصناديق الخشبية ويجهزها للتوزيع أو التخزين.

يعمل بهدوء. يعمل ويفكر. يفكر ويطلق العنان للتحليل. يحلل ويضع الاحتمالات..

- الشايب مريض ويريد منك أن تزوره.

قال أحدهم، إلا أن حمزة ظل يفكر بالاحتمالات..

(انزال شمال صيدا على جسر الأولي.. خرق واسع وعميق في منطقة الشوف..)

ما هي الخطوة التالية؟

جاء الجواب على جهاز اللاسلكي..

(اليقظة والانتباه.. قوات العدو تتقدم من جسر الأولي إلى الرميلة - إلى الجية.. إلى قصر شمعون..).

- إنهم في الطريق إلينا.

- قواتنا تتصدى، لن يتمكنوا من الوصول إلى الدامور.

ـ القوات المشتركة وقوات العاصفة المحمولة، وقوات الفوج المدرع الأول تشتبك مع العدو في الرميلة والجية.

واحتدم الحوار، فقال سائق السيارة العسكرية الشاحنة وقد نفد صبره:

ـ هيا يا اخوتي.. هيا قبل أن تصل الحرب إلى هذا المكان.

فأجابه حسن الأمجد وهو يهرول.

ـ لم يبق إلا القليل، توكل على الله يا رجل..

الرجل ـ السائق لم يكن يريد أن يتوكل على الله فقط، وإنما كان يرغب في الذهاب إلى بيروت والعودة باكراً ليتسنى له غفوة طويلة قبل أن يبدأ صباح يوم آخر..

واصلوا العمل دون أن يتوقفوا عن مداعبته، كان السائق رجلاً ناضجاً، لهجته تشي بأنه نابلسي، من البلدة القديمة، أو ربما من حارة البصل أو الياسمين، وكغيره من سائقي جهاز النقليات كان ضخم الجثة ويميل إلى الدعابة والمرح..

ـ أنت أيها الفتى. من أين حصلت على هذه الطاقية؟

قال السائق مخاطباً شرقاوي..

كانت طاقية زرقاء، قبعة (بيرية) من النوع الذي يلبسه جنود قوات الطوارىء.

ـ اشتريتها من محل الملابس المستعملة..

وعلّق السائق: ـ ربما كانت لأحد الجنرالات الفرنسيين فباعها في لحظة طفر من أجل حفنة سجائر.

وقهقه السائق واهتزت كتل اللحم أو الشحم، ثم أضاف:

ـ ولكنها كبيرة على رأسك الصغير أيها الفتى.. هـل تبيعها بضعف ما اشتريتها..؟

فأجابه أحمد شرقاوي: ـ لا..

ـ لماذا..

ـ لأن لها جيباً بداخلها يمكنني أن أضـع به علبـة سجائـري وأشياء أخرى..

ـ أنت فتى راجح العقل، واستحلفك بالله أن تبحث لي عن قبعـة مثلها مهما كان الثمن.

وهنا جاء حمزة. اقترب. ألقى نظرة على الصناديق القليلة الباقيـة، وقال:

ـ هذا جيد. . لقد أنجزتم عملكم بسرعة.

ونظر السائق لساعته، وقال:

ـ يتعينّ عليّ أن أتحرّك فوراً من أجل إحضار الطحين..

وقال كأنما تذكر شيئاً:

ـ وعليّ أولاً أن أذهب إلى قيادة الميليشيا هنا لكي يـرسلوا معي من يستلم الطحين من المركز.

ظـل حـمزة واقفـاً إلى أن انتهـوا من انـزال الصنـاديق، فصـافحـه السائق، وصعد إلى مقعده وراء عجلة القيادة..

وعند ذلك عـبر سرب من طائـرات الاستطلاع فـارتبك السـائق، وأحسّ بأنه يرتعد، لكنه تمالك نفسه، وأدار المحرك، وابتعد بسيـارته تاركاً وراءه كمية من الدخان الأسود.

□ □ □

طرق الزهيري الباب.

فتحت له زوجته: دخل. سبقها إلى الغرفة.. إلى خزانة الملابس، وأخرج قميصاً وبنطالاً.

تساءلت بدهشة: خير.. هل ستسافر؟

هزّ رأسه بالايجاب. خلع حذاءه، خلع قميصه المتسخ.

- إلى أين.. ولماذا العجلة؟

- سائق السيارة ينتظرني في الخارج.

فتحت طرف النافذة، فشاهدت سيارة (اليونيمك) الشاحنة تقف على الشارع ويجلس سائقها وراء عجلة القيادة..

خلع الزهيري قميص الفانلة الداخلي. خلع الكلسات فقالت الزوجة:

- بقي عليك أن تخلع خشب النافذة..

تأفف الزهيري واسع الصدر، وقال:

- لا وقت للمناكفة.. يجب أن أذهب فوراً.

- إلى أين؟

- إلى بيروت..

- لماذا؟

- سأذهب لاستلام حمولة السيارة من أكياس الطحين.. تريد الثورة أن تضمن استمرار تأمين الخبز في ظروف الحرب.

- أخاف عليك.

كانت تحبه. قبلّ شعرها. قبّل جبينها. قبلّ عينيها.

قالت له: لا تقبلني هنا.. إن هذا يعني أننا سنفترق.

ابتسم وأبعدها بلطف ولبس ثيابه ثم سألها: أين بطاقتي؟
عبست وسألت بقلق: وهل يطول غيابك.
تناول علبة سجائر. جلس على كرسي أمام المرآة.
نظر إلى وجهه غير الحليق وأجاب:
ـ ربما نعود الليلة أو صباح الغد.
ـ إنتبه يا زهيري. ليس لي أحد سواك.
قرصها من فخذها وقال ضاحكاً:
ـ أبعدي الفأل السيء عن ذهنك.
ـ هل أصنع لك فنجان قهوة؟.
ـ لا. السيارة تنتظرني في الخارج.
ـ عد الليلة يا زهيري.. لا تتأخر حتى الصباح.
ـ هل تخافين؟
ـ بارودتك في البيت.
ـ وماذا أيضاً؟
ـ وفي البيت ثيابك ورائحة حنوّك..
ـ في البيت رائحة غسيلك النظيف ورائحة قهوتك الصباحية.

وعندها جاء بوق سيارة (اليونيمك).. كان سائقها يستعجله، ويعلن عن نفاد صبره..

ـ يجب أن أخرج فوراً.. الرجل ينتظرني في السيارة.
ضمها ثم قبّل خديها:
ـ لن يطول غيابي.
ـ انتظر..

فتحت الخزانة وأخرجت كنزته الصوفية مرة أخرى..

ـ خذها معك، أنت لا تحتمل البر، فإذا عدت متأخراً البسها.

قبّل خدها مرة أخرى وقال:

ـ لن يطول غيابي. .

ثم خرج. .

ومن طرف النافذة، شاهدته يصعد إلى السيارة الشاحنة، ويجلس بجانب سائقها، شاهدت السيارة وهي تنطلق ثم تبتعد. . تبتعد. .

- 26 -

الظلام شامل. أعلنت قوى الـدفاع المـدني نظام التعتيم. أصـوات القصف البعيد تقترب. الحريق يقترب. تمشي السيـارة في العتمة دون نور. تمشي بوجل. الفتى أحمد شرقـاوي يحفظ الطريق عن ظهـر قلب ولكنه منقبض، وحمزة يعبس ولا يتكلم على غير عادة. ليس ثمة سـوى ارتجاج السيارة فـوق الحصى. البيوت تستنـد على بعضهـا كأنها تخشى السقوط لشدة هذا الارتجاج، لقوة الصواريخ عابرة الفضاء.

أصوات هدير في عمق البحر. طنين النحل أو عواء الذئاب.

حزام ناري يضيء من بعيد. يضيء لحظة أو بعض لحـظة. تسطع الدهشة والوحشة.

العتمة غول له أظافر وعيون جاحظة. العتمة غابة وحشية مزروعة بالانتظار. الخـوف يمشي على أربع. الخوف لـه مجسّات أو مخـالب أو خنجر وحيد القرن. الخوف يحيط بالبيوت ويملأ الفراغ والفجوات.

قال حمزة: كأن البيوت مهجورة.

أجـاب أحمـد شرقـاوي: النـاس يتـوقعـون الهجـوم وينـامـون في الملاجىء.

وظلت السيارة ترجرج فوق الأرض غير المستوية. وظل كـل منهما يفكر بالذي سوف يأتي.

أخيراً وصلا بيت الشايب، فتوقفت السيارة. ترجل حمزة، فسأله أحمد شرقاوي:

ـ هل ستتأخر كثيراً؟

ـ نصف ساعة.

ـ أريد أن أغيب قليلاً ثم أعود. هل تأذن لي؟

فكر حمزة قليلاً ثم قال: حسناً، ولكن لا تتأخر.

طرق حمزة الباب. ليس هناك سوى العتمة والمزيد من العتمة، وبعد حين جاء صوت نسائي:

ـ من هناك؟

أعلن حمزة عن حضوره. انفتح الباب. استطاع رغم العتمة أن يعرفها.. أن يشعر بما أحدثه حضوره من مفاجأة. وفجأة انفجرت بالبكاء.

امتدت يده في الظلام ولامست شعرها، فلجأت إلى صدره. كان جسدها يرتجف. يهتز بدنها مع البكاء والنشيج.

دخل الغرفة ومشت معه. في الركن كانت الشمعة تكاد تنفد وتصارع من أجل البقاء.

كان الشايب يتمدد فوق الفراش، وبجانبه ينام الطفل.

سلم عليه، فردَّ الشايب السلام بصوت ضعيف.

ـ ما الذي حدث معك؟

ـ شعرت بالاعياء والدوار.. منذ العصر شعرت بكل قواي تنهار.

أمسك حمزة بيدي الشايب. من الواضح أن درجة حرارته مرتفعة.

ـ سأجد لك طبيباً هذه الليلة . . سأبذل جهدي . .

ـ لا يا حمزة. إنها وعكة بسيطة، وعما قريب تتحسن صحتي.

ما زال جو الغرفة كئيباً، والشمعة التي تحتضر تزيد الجو قلقاً. وظلت أصوات القذائف البعيدة تصل الى الأسماع، وبعضها كان يتساقط في الأودية القريبة فتهتز الأشياء. تهتز بكل عنف.

ـ شد حيلك يا شايب. . أيها الزيتونة المباركة.

أجاب الشايب بصوته الخافت: لا تقلق عليّ، ولكن إذا حدث لي مكروه فإنني أوصيك بهذه المرأة وطفلها.

ظلت المرأة تمسح دموعها بمنديل في يدها، فقال حمزة:

ـ كفّي عن البكاء.

صمتت. شعرب بأنه يؤنبها، وجاهدت لكي تكتم بقايا شهقاتها.

ـ ألا يوجد شمعة غيرها؟

قالت المرأة: يوجد شمعة أخرى ندخرها للنصف الثاني من الليل.

ثم قامت فأشعلت عود ثقاب، وأضاءت الشمعة الجديدة.

تحسنت الاضاءة في الغرفة. ظهر وجه الشايب المتعب، والطفل النائم، والمرأة التي كفت عن البكاء.

سأل الشايب: هل من أخبار جديدة؟

ـ الوضع صعب وقواتنا تقاتل في كل مكان.

ـ هل سيصلون الى الدامور؟

ـ هذه الليلة ستكون حاسمة.

وتقلب الطفل في الفراش، فأحسّ حمزة بأن عليه ألا ينقل المزيد من الخوف إلى قلوبهم.. فأضاف:

ـ ربما تحدث معركة هذا الفجر ولكننا سننجح في صدهم كما كان يحدث في الماضي..

كان ضوء الشمعة يتراقص، يعكس خيالاتهم على الحائط، تسلل شيء من السكينة إلى قلب المرأة، فظلت تنظر إلى حمزة دون أن تتكلم. مرت لحظات صمت طويلة، نظر حمزة إلى ساعته.

وتساءل: كم بقي من زمن لعودة أحمد شرقاوي؟

□ □ □

غمرته السنيورة بقبلاتها واحتوته بذراعيها.. كأنه جاء بعد سفر طويل.. كأنه جاء بعد طول غياب. غمرته بقبلاتها واحتوته بذراعيها، وفتحت صدرها وأطلقت كل ما فيه من عصافير الأشواق.

ثم أضاءت الشمعة، فانتشر الضوء.. الغرفة مرتبة.. الأشياء منسقة.. تفوح رائحة الغسيل ورائحة النظافة. الغرفة منسقة كباقة من الزهور.

قال أحمد شرقاوي:.. اشتقت لك كثيراً..
أجابت السنيورة: ما دمت مشتاقاً فلماذا هذا الجفاء؟
ـ لم أتمكن من الحضور بسبب حالة الاستنفار القصوى.
ـ وكيف جئت في هذه العتمة؟
ـ لدي ربع ساعة فقط.
ـ ربع ساعة..؟

ـ حمزة ينتظرني في بيت الشايب.
ومرة أخرى، غمرته بقبلاتها وضمته إلى صدرها. .
ـ لا تُطِل الغياب في المرة القادمة. .
ـ ألا تشعرين بـالخـوف؟
ـ ولماذا أخاف؟
ـ الحرب وصلت الأبواب.
ـ إنهم يهاجموننا فلماذا لا نواجههم بكل أشكال الصمـود؟
ـ وماذا ستفعلين؟ .
ـ سأذهب إلى مركز الهلال الأحمر وأطلب منهم قبولي كمتطوعة.
ـ فإذا رفضوا. . ؟
ـ أذهب إلى فرن الزهيري وأساعده في عجن الطحين.

قبّلهـا، ونـظر إلى وجههـا لـيرى إذا كـان الشحـوب قـد رحـل عن وجهها أولاً، لكن ضوء الشمعة كان خافتاً.

ـ هل أجهز لك العشاء؟
ـ لا أستطيع. يجب أن أمشي لأن حـمزة ينتظرني وعلينـا أن نعود الى المـوقع. .

ويبـدو أنها قد لاحـظت فجأة أنـه يلبس قبعة غـريبة عـلى رأسه، فتساءلت:

ـ ما هذه الطاقية التي تلبسها؟
ـ اشتريتها من محل الثياب المستعملة. .
ـ إنها كبيرة على رأسك.
ـ لقـد أعجبتني لأن بها جيبـاً يمكنني أن أضع بـه علبة سجـائـري وأوراقي. .

فابتسمت. . وقالت:

ـ على كل حال ما دامت تعجبك فإنها بالتأكيد تعجبني.

فكر أحمد شرقاوي قليلاً. . ثم سأل:

ـ اسمعي يا سنيورة. . أريد منك زجاجة عطر صغيرة. .

فقالت وهي تواصل الابتسام: ولماذا تريد زجاجة العطر؟

ـ ألم تسمعي بتلك القصة. .

ـ أية قصة؟

ـ قصة المقاتل الذي استشهد. .

ـ وما هي القصة؟

«يقال بأن مقاتلاً من قوات الثورة استشهد في احدى المعارك، فحضر الملائكة لنقله إلى الجنة. .

فسأله الملائكة: من ربك؟

ـ أجاب: الله ربي؟

ـ وسألوه: ومن هو نبيك؟

ـ أجاب: محمد نبيي.

ـ وسألوه: وأين هو عطرك؟

أجاب: لم أحضره معي. .

فقالوا: الجنة طيبة ولا يدخلها الا من كان يحمل عطراً ذا رائحة طيبة. ثم نقلوه الى منطقة تقع ما بين الجنة والنار. .

ولذلك أريد أن أحمل معي زجاجة عطر»

ضحكت ثم قالت: ليبعد الله الشر عنك يا حبيبي. .

وقامت إلى حقيبتها، ففتحتها، وأخرجت زجاجة عطر.

تناول الزجاجة، وأنزل الطاقية، وفتح الجيب وأدخل الزجاجة فيه، ثم أعاد الطاقية إلى رأسه..

قالت: إذن فأنت الآن قد ضمنت أن يدخلك الملائكة إلى الجنة.

نظر إلى ساعته، وقال: يا آلهي.. يجب أن أمشي.

تعلقت به:

ـ عد لأراك كلما سنحت الفرصة.

شد يدها: وداعاً..

خرج.. خلع قبعته ولوّح بها، وراح.

- 27 -

تسير السيارة الشاحنة على ضوء أزرق. ضوء مكتوم يزيد الأمور تعقيداً، ويزيد العتمة حلكة، والوحشة فراغاً.

تسير السيارة الشاحنة بمحاذاة البحر.. البحر السميك.. الغادر. البحر المفترس.. كثير الحيل.

للبحر في هذا الليل رائحة، ربما تختلط رائحة المزبلة عند الأوزاعي برائحة ما يطرحه البحر من نفايات.

وعلى كل حال فإن برق الانفجارات البعيدة يوحي باقتراب الزلزال.

دبق في الجفون، دبق النعاس، رطوبة الجو، البيوت والأعمدة وأشباح الأشياء، والتوقعات غير المحتملة، والتصورات التي لا تطاق.

دبق في الجفون، يكاد الزهيري أن يسقط في بئر النعاس، تهتز السيارة وتوقظه. يحلم بالوصول لكي ينام على سريره مثلما تنام حبة القمح في باطن الأرض..

منذ العصر لم يتوقف عن العمل. ذهب وجاء. انتظر ثم حصل على ما يريد، وقف ينتظر الدور ثم وقّع الكشف، وبدأ العمال يحملون السيارة بأكياس الطحين وهو يراقبهم ويحصي الأكياس يراقبهم

ويتخيل الأرغفة. يراقبهم ويرى بيت النار، يراقبهم ويفرح بانجاز المهمة. والسائق ينتظر. يدخن أو يأكل ساندويش. يشرب من ابريق الماء ثم يمسح فمه بطرف كمه.

الآن كل شيء على ما يرام. تنوء السيارة تحت أطنان الطحين، تمشي ببطء ويملأ ضجيج محركاتها الرتيب المكان. تمشي ببطء والطريق صعب وطويل فكأنها ترجع الى الخلف. من بيروت حتى مثلث خلده، عشرات الحواجز..

- انتبهوا، فقبل ساعات جرت معركة بالدبابات أمام المسبح. شباب يحملون القواذف المضادة للدروع ويقبلون على المعركة بحماس شديد، دوشكات محمولة على سيارات، مدافع متحركة على عجلات.. وضوضاء ليس لها مثيل.

تجاوزت السيارة منطقة المسبح، وما زالت تمشي على ضوء أزرق مكتوم. السائق يحك رأسه، إنه يحفظ الطريق عن ظهر قلب، لكن الاعياء قد هد قواه، فهو يقود السيارة بالحدس.

دبق في الجفون. يشعر الزهيري بأن العروق قد أصبحت نافرة في عينيه، فيحث السائق على الاسراع، والسائق يسمع ويهز رأسه.. والسيارة تمشي ببطء كأنها تصعد مرتفعاً.

وبين الحين والآخر تنطلق قذيفة من مكان وتسقط في مكان آخر.

تملأ الرهبة قلبك يا زهيري، تشعر بانقباض وقلق.. فمتى يكون الوصول، متى تحط عن كتفيك أثقال السفر، وتجد وسادة طرية تسند إليها رأسك الثقيل؟

وتهتز السيارة الشاحنة من جديد.. لعلها خرجت عن الشارع

وعبرت الأطراف الوعرة. تهتز ويهتز جسد الزهيري. يزداد الغبش. يوقف السائق السيارة، ويخرج رأسه من النافذة.. أين صرنا؟

يبحث ببصره عن شواخص. عن علامات يستطيع من خلالها أن يحدد المكان.. لكن الرؤية غير واضحة. الرؤية معدومة.. ليس ثمة سوى أشباح. لا صوت ولا هبوب ريح.

وفجأة أضاءت الدنيا. سطع ضوء عال.

عشيت عينا السائق. عشيت عينا الزهيري.

وهجم الخوف البشع كالكارثة.

فتح أحدهم باب السيارة:

- انزل..

قال السائق باضطراب: وقعنا في كمين.

عرف الزهيري أنه كمين اسرائيلي. شاهد البنادق مشهرة.. البنادق العوزى، وطاسات الحرب، والناقلات البرمائية التي تشهر رشاشاتها وضوءها الساطع. سرت في جسده قشعريرة. سرت برودة ثلجية.

وأدرك الزهيري أنه قد وقع.

وما حدث بعد ذلك كان سريعاً.

قفز السائق من السيارة، وهرب.. ربما أطلق ساقيه بشكل غريزي. أطلق ساقيه بحثاً عن النجاة.. فأطلقوا عليه النار. سقط تحت الضوء الساطع، فشعر الزهيري بأن قواه تخور، وأنه قد يسقط من الاعياء.

جاء أحد الجنود ودفعه قائلاً:

ـ ارفع يديك.

بذل جهداً من أجل أن يرفع يديه. ما الذي يحدث وكيف حدث وما الذي سيحدث؟

فتّشوه. كانت جيوبه خالية الا من وصل استلام الطحين.

احتفظوا بالورقة، ثم ربطوا يديه عند الرسغين، وسحبه أحدهم الى احدى الناقلات.. ألقوه بداخلها، فمشت.. سارت فوق اليابسة قليلاً، ثم ابتلعها البحر.

نقلوه إلى بارجة حربية. عصبوا عينيه ثم دفعوه الى طائرة مروحية. حملته مع أسرى آخرين.

اصطدمت كتفه بأكتافهم ورجلاه بأرجلهم، وحاول بعضهم أن يتكلم فضربه الجنود.. وظل صوتا محركها ومراوحها يدوران في رأسه.

حطت بهم الطائرة على اليابسة. هبط وهبطوا..

وجد نفسه ملقى على الأرض وأحدهم يدوسه بحذائه.

المكان مرتفع. عرف ذلك من لسعة البرد فافتقد كنزته الصوفية.

افتقد المرأة التي تنتظره وفراشها الدافىء.

داهمته رغبة في البكاء. ارتجف.. ارتجف بشدة.. لم يدر هل يرتجف من الخوف أم من البرد؟

ظل كذلك برهة أو ساعة أو حيناً من الدهر.

ثم رفع الجندي حذاءه، وشده من شعره.

ـ قف..

وقف، فدفعه أمامه. قاده الى مكان قريب.

شعر بأنه يدخل غرفة.

فك الجندي العصبة عن عينيه.. ها هو في غرفة. غرفة مضاءة. فيها سرير وطاولة وكرسي واحد، ورجل تحقيق.

فك المحقق قيده ثم سأل.

ـ اسمك الكامل.

ـ أحمد الزهيري..

ـ عملك.

ـ فران.

ـ إلى أي منظمة تنتمي.

ـ أنا رجل مدني ولا علاقة لي بالمنظمات.

ـ كلكم تقولون ذلك في البداية وفيما بعد نكتشف أنكم من الرجال الخطرين.

ـ أنا رجل مدني ولا علاقة لي بأي تنظيم.

وعند ذلك ضغط المحقق زر الجرس، فدخل مقنّع. رجل طويل يضع قناعاً على وجهه لكي يعرف الآخرين ولا يعرفه أحد.. عرف الزهيري أنه أحد العملاء..

نظر إليه الرجل المقنّع. حدق به طويلاً. لم يرتجف الزهيري، كان قد هيأ نفسه لأسوأ الاحتمالات.

لكن عندما كان الرجل ينظر إليه حاول الزهيري أن يحدس عمن يكون، حاول في خياله أن يرفع القناع ويتصور شخصية هذا المخبر، ولم تقفز الى ذهنه سوى صورة سعيد راجي.

لم يستطع أن يتصور الا سعيد راجي.

وهمس الرجل المقنع في إذن المحقق، وعند ذلك ضغط المحقق زر الجرس مرة أخرى فدخل عدد من الجنود وهجموا عليه. ضربوه باللكمات على أسنانه وعلى أعضائه. أغمي عليه ثم أغمي عليه ثم أغمي عليه.

بصق كتل البلغم ثم كتل الدم، ثم كتل الدم مع البلغم.

ـ أين مواقع رجال المنظمات في الدامور؟

ـ لا أعرف..

ضربوه مجدداً. طار في الهواء. ارتطم بالأرض. وتلقّى صدره نعال البساطير.

ظل الزهيري صامداً ولم يدل بالمعلومات.

توقفوا عن ضربه وتركوه ملقى في زاوية الغرفة.

نام متدثراً بالوجع، ونفرت العروق الحمراء في عينيه، هل غفا؟ لعله نام لحظة. لعله نام فترة زمنية تقدر برمشة، ثم شده المحقق من شعره.

وقال: اخلع ثيابك..

أجابه الزهيري وهو يرتجف: البرد شديد..

قال المحقق: اخلع ثيابك.

أجاب الزهيري: لا أستطيع تحمل البرد.

ضربه بكعب بندقيته على رأسه. داخ. هل سال الدم؟

خلع الجاكيت، وخلع القميص.

ـ اخلع ثيابك.

خلع البنطال.

ـ لا أستطيع أن أتحمل البرد. .
ـ اخلع ثيابك.
بدأ يرتجف وقال وأسنانه تصطك:
ـ لم يبق الا سروالي الداخلي الذي يستر عورتي.
ضربه بكعب البندقية مرة أخرى.
خلع سرواله الداخلي، وأصبح عارياً. .
أعاد الجندي القيد الى يديه، ثم دفعه الى الخارج.
ـ لا أتحمل البرد. .
دفعه الجندي الى الخارج وأغلق الباب.
ظل الزهيري عارياً تحت سياط برد ما بعد منتصف الليل.

بعد لحظات كان جسده يرتجف بشدة. بعد لحظات صرخ من أعماقه، وبدا كما لو أن صوته ينبجس من بين الصخور. بعد لحظات كان يعوي مثلما الذئاب البريّة. بعد ساعة كف عن الصراخ. صمت. استسلم. كان البرد القارص سكيناً يعمل للفصل ما بين جلده ولحمه. قفز في الهواء. كان القلب ينط في صدره كالضفدع. بدأ الرذاذ يتساقط. بدأ الزهيري ينهار. . بدأ يتهاوى.

تشنجت في البداية يده، ثم جف حلقه، وزاغت عيناه ولعله رفع رأسه بحثاً عن الشمس أو الوهج أو النار ذات الشعلة الدائمة.

ثم سقط. سقط بلا حراك.

عند الفجر صار جثة هامدة بوجه أزرق تيبّست كل عضلة فيه. . وجه صامت أو غاضب. هادىء أو عاصف مثل رياح المحطات.

الأصابع متشنجة. . واقفة مثل مشط من الرصاص، والأنف

الذي تعرض الى اللكمات سال من فتحتيه دم تجمّد، والشارب الكث غير المعتنى به نافر الشعيرات مثل الحشائش البرية. العينان المفتوحتان فيهما زرقة. حزن. صمت. دهشة. لعلهما عشيتا من طول انتظار الدفء أو هجوم الأدغال الخضراء.

- 28 -

ابتـدأ القصف بعد منتصف الليـل. بدأ متقـطعاً ثم تـواصـل بـلا انقطاع.

كانت زليخة تطعم دجاجاتها عندما سقطت قذيفة وقصمت ظهر الغـرفة المجـاورة فانهار المـطبخ وانكسرت الصحـون واشتعـل خشب النافذة.

لبست زليخة الحذاء بالمقلوب، وركضت بغريـزة البقاء. وركضت يطاردها الرعب. ركضت يطاردها الموت الأحمر..

ركض البشكار متوجهاً الى بيته فسقطت قذيفة أمامه. انبطح عـلى الأرض فتناثرت شظاياها حوله.

وقف سريعـاً وقـرر أن يعــود من حيث أتى، فسقـطت القــذيفـة وراءه.

انبطح على الأرض وتناثرت شظاياها حوله. لم يقف وظل منبـطحاً ينتظر القذيفة الثالثة التي ستسقط على أم رأسه.

ارتجت الغـرفـة فسقط قفص العصـافـير المعلق بـالسقف. انفتـح الباب فلم تهرب العصافير وإنما انكمشت في زوايا القفص.

قالت الممرضة ماري التي بدت شاحبة وحزينة ومجهدة:

ـ وصلت السيارة التي ستنقلكم الى البقاع.

كـان القصف يهز الـدنيا، يحـولها الى ليلة من ليـالي جهنم، وكـان الجرحى، ذوو الأطراف الصناعية، الذين يمضون في هذا المكان فـترة النقاهة، والذين أجهدهم السهر والقلق وغموض ما يجري، يحـدقون بوجهها الذي امتصه الاعياء، ويحاولون قراءة الخطر.

لقد قضوا ساعات طويلة في هذا الملجأ، بعضهم يسند ظهـره الى الحائط البارد، وبعضهم الآخر ينبطح عـلى الأرض. ينتظرون الفـرج أو ينتظرون الموت، ويتخيلون كل الاحتمالات الشيطانية. بينما أضواء الشموع في زوايا المكان تكاد تختنق في ضباب دخان السجائر.

أحدهم عزَّ عليه أن يخرج بهذا الشكل، فقال بتردّد:

ـ لنبقَ هنا يا أخت ماري.

في هذه اللحظة كانت ماري هي التي تقرِّر.

وقال آخر: نبذل جهدنا لكي نقوم بأي واجب يسند إلينا.

ظلّت تحـدِّق في وجوههم، عـزَّ عليهـا أن تقـول ما من شـأنـه أن يشعرهم بالعجز.. ما أصعب أن يشعر المرء في مثـل هذه اللحـظات أنه بلا فائدة، وحين همَّت بالكلام دخل أحمد شرقاوي. دخل بوجهـه الممتقع، وطاقيته الزرقاء الواسعـة، طاقيتـه التي تغطي جبينـه، وتكاد تغطّي عينيه.

هبط درجـات الملجأ المضـاء بالشمـع، وهو يحمـل البنـدقيـة عـلى كتفـه. فتعلّقت به العيـون.. لا بـدّ أنـه يعـرف حقيقـة الـوضـع في الخارج .. أين وصلوا؟ وماذا سيحدث؟

خلع الطاقية عن رأسه ومسح العرق عن جبينه.

ـ مساء الخير.

طرح عليهم السلام.
ردّوا التحيّة بأحسن منها. وظلّت أبصارهم تتعلّق به.

ارتبك أحمد شرقاوي. لماذا ينظرون إليه هكذا؟

نظر إلى الممرِّضة ماري وقال:
- الشايب مريض وحالته سيئة.. أين الطبيب؟
أجابت الممرِّضة بالارتباك نفسه:
- الطبيب موجود في المستشفى الميداني.
- ألا يمكنك الذهاب معي لرؤيته؟
- أنا لست طبيبة.
- لكنك تستطيعين إعطاءه بعض المسكِّنات.
- لا أستطيع أن أترك هؤلاء الرجال هنا، يجب أن أنقلهم إلى مكان آمن.

قال أحدهم بصوت عال: ولكننا لا نريد ترك هذا المكان.

ازدادت الممرِّضة ارتباكاً، وتصارعت فوق وجهها شتى الانفعالات.

وقال آخر: نشارك في المعركة بقدر ما نستطيع.

احتارت الممرِّضة. كان عليها أن تقنعهم بأن من الأفضل لهم ترك هذا المكان.

فقال أحمد شرقاوي: إذن أعطيني بعض الحبوب المسكِّنة إلى أن نجد الطبيب.

هزّت الممرِّضة رأسها، وقالت: حسناً.. سوف أذهب معك.
وعندها أعاد أحمد شرقاوي الطاقية إلى رأسه.

يتمدَّد الشايب في الفراش. يسبل جفنيه ويتنفَّس ببطء. يفتح عينيه بين الحين والآخر،ويكلِّم نفسه، يهذي، ثم يتراجع.

تجلس قرب رأسه (زليخة). تمسح جبينه، وتبلِّل شفتيه بالماء. تجلس قربها المرأة الأرملة.. تحتضن طفلها الذي يحدِّق بالوجوه تارة، وبالسقف تارة أخرى، ويتحسَّس سِنَّه التي أصبحت على وشك السقوط.

همست زليخة: حرارته مرتفعة.

يزيد شحوب الضوء المنبعث من مصباح الكاز الغرفة كآبة، وتنبعث رائحة الاحتراق والدخان الأسود... وتتواصل في الخارج الانفجارات البعيدة والقريبة.. لقد اعتادت المرأة الأرملة على هذا الجو، لم تعد ترعبها الاحتمالات.. لم يعد يخيفها أن يسقط صاروخ أو قنبلة من وزن ألف باوند.

كانت تفكِّر في هذا الشيخ الطيِّب الذي يعاني في هذه الليلة التي تكشِّر عن أنيابها.

أزاح الشايب عن نفسه الغطاء، وبدا كما لو أن قوّة مفاجئة قد جعلت الدماء الحارّة تسري في عروقه. رفع عينيه إلى السقف.. كأنه يرى ما وراءه من قمر ونجوم. كأنه يرى بعينيه غيمة.. وهو يتمتم: اهدئي يا مباركة.. اهدئي يا مباركة.

كانت غيمة بيضاء.. ديمة مثقلة بالندى.. تعبر في الفضاء الفسيح.. فيخاطبها.. ينظر إليها وهي تعبر ولا تتوقَّف، ويقول بصوت أجش:

ـ حيا.. حيا..

ثم تـراجع. يسنـد رأسه إلى الـوسـادة، ويسبـل جفنيـه، ويتنفّس ببطء.

قالت زليخة: إنها صحوة الموت. . إنها سكرة من سكرات الموت.

اقشعرّ بدن المـرأة الأرملة، وقالت إن المـوت في هذه الليلة شـديد القسـوة، فلن يجد الشـايب من يغسـل جسـده، لن يجـد من يقيم لـه جنازة لائقة. المقـاتلون ذهبوا إلى المـواقع الأمـاميـة، وحـمـزة لم يمكث سوى نصف ساعة، والمستقبل غامض، والدنيا ملعونة سبع لعنات.

مرّت فترة طويلة من الزمن، كان الطفل خلالهـا قد نـام، فحملته أمّه وفرشت له في الغرفة المجاورة.

وعندما عادت، جاءت الشايب صحوة ثانية.

اندفعت الدماء الحارّة في عروقه فاستند إلى مـرفقيه، وقـال مخاطبـاً الحاجة فاطمة التي ماتت منذ زمن بعيد:

ـ افتحي النافذة.

الحرب وراء النافذة، ووراء النافذة الشركسي يحمل رمّانته:

الشركسي يستلّ خنجره ويطلق صرخته.

ـ ماكو أوامر.

يضيء الأفق، تنشقّ السماء، ويأتي المدد من وراء الغيب.

قالت له زليخة: وحّد الله. .

رفـع الشايب يـده. مدّ أصـابعه المتشنّجـة عـلى هيئـة مسـدّس أو رشّاش، ثم ارتخت يده فجأة.

سقطت يده على الأرض..
سقط جسده على الأرض..
سقط دون حراك..
لقد أغمض عينيه وأغفى أخيراً الرجل الذي لا ينام.

- 29 -

إذن مات الشايب.

أسبل جفنيه، ونام نوماً عميقاً. نام الرجل الذي جفاه النوم منذ زمن بعيد، وسقط بلا حراك.

شهقت المرأة الأرملة بالبكاء. هل كانت تبكي عليه أم على رجلها الذي مات غريباً أم تبكي على نفسها؟

أما زليخة فإن دمعة واحدة لم تسقط من عينيها، وإنما ارتسم على وجهها الحزن الجليل والحزن الواسع.

وفي الخارج واصلت القذائف هجومها من الجهات الأربع.

ظلّت الأرض تهتزّ، وظلّت الجدران ترتجّ، وظلّت الطمأنينة تبتعد وتلوذ بالفرار.

قالت زليخة: ليس لدينا الوقت الكافي.. هيّا سخّني الماء.

رفعت الأرملة رأسها: هل تعنين أننا سنغسّله؟

كانت زليخة قد اتخذت قرارها، وقالت:

ـ يجب أن نغسّله وأن ندفنه بشكل لائق.

ثم دارت في أطراف الغرفة، وأضافت:

ـ الوقت يمرّ بسرعة وإذا لم ندفنه قبل الفجر فسيبقى هكذا إلى أن تأكله الديدان.

وقفت المرأة وذهبت إلى المطبخ، سخّنت الماء ورجعت تحمل السطل بيديها وتنوء تحت ثقله.

أخذت زليخة تنزع ثياب الشايب.

شعرت الأرملة بالرهبة.

قالت زليخة: أحضري الصابونة.. أحضري ثوبه الأبيض من الخزانة..

فعلت الأرملة ما طلب منها، ودبّت في قلبها قوّة مفاجئة.

والآن أصبح الشايب عارياً إلاّ مما يستر عورته.

أصبح مهيّأً لحمّام ساخن يليق بروحه النظيفة.

قالت زليخة: صبّي الماء هنا.

وأشارت إلى رأسه ذي الشعر الأبيض الفضي.

غمرت الشعر بالماء، وبدأت زليخة تدلك الشعر بالصابون. فاحت رائحة الصابون المعطّر.

شمّت زليخة رائحة البخّور والحنّاء تصعد إلى رئتيها، فقالت لنفسها: لتسكن الجنّة روحه الطاهرة.

تخيّلت الأرملة زوجها مسجّى والشايب يغسله.. لقد تخيّلت ذلك كثيراً في الماضي ولكنها الآن تدرك أهمية أن يجد المرء من يحنو عليه في موته..

واصلت زليخة تدليك الصدر بالصابون، الصدر المزروع بالشعر الكثيف...

ثم دعكت بطنه وساقيه ودعكت ما بين ساقيه، والأرملة تنظر إليها تارة وتغض البصر تارة أخرى.

وكانت زليخة تسهو. تغيب قليلاً. لعلّها تتذكّر زوجها (أبو كامل) الذي رحل ذات يوم ولم يعد، وظلّ صوت عكّازه يتردّد في مسامعها كلما أحاط بها غول الوحدة.

ـ صبّي الماء هنا..

أدارت الأرملة الماء على الجسد النحيل. العظام بارزة. البطن ضامر، والساقان رفيعتان ويكسوهما الشعر الغزير.

ـ والآن أعطيني ثوبه الأبيض..

نشّفت جسده بالمنشفة، ثم ألبسته ثوبه الأبيض.

بذلت جهداً كبيراً وهي تلبسه ثوبه.. وكان مطواعاً.. كان رغم الموت له وجه تحيط به هالة مثل أولياء الله.

كان رجلاً صالحاً، لذا فإن النور يكاد يقفز من جبينه.

ـ ساعديني..

أعادتاه إلى فراشه، فظلّ يسبل جفنيه كأنه ينام دون أن يزعجه أحد. وانشغلت زليخة بشطف أرض الغرفة ومسحها.. انشغلت بترتيب البيت ليرحل راضياً مرضياً..

حدّقت الأرملة بوجه الشايب، وخيّل إليها أن حركة ما بدرت من جفنيه المسبلين. انقبض قلبها، ولم تجرؤ على الكلام. خشيت أن تتهمها زليخة بالجنون.

أشاحت بوجهها ولم تعد تنظر إلى الجثة، لكن نمل الخوف بدأ يسبح في عروقها. ولأمر ما تلفّتت إليه مرّة أخرى، فأحسّت بأن أصابع يديه قد تحرّكت، وعند ذلك هاجمها الخوف الصاعق، وشعرت بقلبها يكاد يقفز إلى حنجرتها.

كان ضوء المصباح يخفت رويداً رويداً، وفي الخارج جاء صوت الطائرات.

ـ لا خوف من قصف الطيران في الليل.

قالت زليخة، وشيئاً فشيئاً أخذ ضوء المصباح ينوس ويتلاشى، حتى أن وجه الشايب صار شديد الغموض، وأخذ صوت الطائرات يقترب ثم يبتعد..

وفجأة انطفأ ضوء المصباح. نفد الكاز.. وصارت الغرفة مظلمة..

أحسّت الأرملة أن عشرات الأذرع تشدّها من شعرها.. أحسّت بالأظافر والمخالب تنهش بطنها وأمعاءها، فصرخت..

قالت زليخة: لا تخافي.. اهدئي يا بنية..

كان الرعب يملأ قلب الأرملة. كانت تشعر كأن الدبابير تسكن في دماغها.

ـ لا تخافي.. سأبحث عن شمعة في المطبخ.

صارت الطائرات تقوم بإغارات وهمية على البلدة وعلى المواقع المجاورة..

نطقت الأرملة بصعوبة: لا تتركيني وحدي..

قالت زليخة: لا تخافي الطائرات،فإنها لا تقصف ليلاً..

عادت الأرملة تقول بصوت مرتجف: أين ابني.. أين ابني..

قالت زليخة: سأحضر الشمع من المطبخ..

تشبّثت الأرملة: لا تتركيني.. إنه يتحرّك.. إنه يتحرّك.

تساءلت زليخة: من هو..

أجابت الأرملة بصوت يشبه البكاء: الشايب يتحرَّك...

وجمت زليخة. لم تظهر ملامحها في العتمة. ثم قالت بصوت متردِّد كأنها تريد أن تطمئن نفسها: كيف يتحرَّك الأموات.. هل أفزعتك العتمة؟

وفجأة طرق الباب فأحسَّت الأرملة أنها تريد أن تمسك حبال الهواء بيديها.

قامت زليخة وفتحت الباب، فأطلَّ من ورائه أحمد شرقاوي يحمل مصباحاً يدوياً، ومن ورائه الممرِّضة ماري..

ـ لماذا تجلسون على العتمة؟

لم تقل زليخة شيئاً.. لم تكن تجرؤ على قول شيء..

دخلا.. أدار أحمد شرقاوي ضوء مصباحه في الغرفة. عبر ضوء المصباح الزاوية.. عبر وجه الأرملة.. عبر فوق الثياب المكوَّمة.. واستقرَّ فوق وجه الشايب.. الشايب الذي ينام بهدوء ويستسلم للنوم..

قالت ماري: أليس لديكم شمعة؟

قالت زليخة: بلى.. انتظري..

أحضرت الشمعة وعلبة الكبريت..

أضاءت الغرفة..

فتحت الممرِّضة حقيبتها، وأخرجت السمَّاعة الطبيَّة.. أخرجت جهازاً لقياس الضغط.. أخرجت حقنة وعلب أدوية..

قالت زليخة: لقد وصلت متأخِّرة..

صاح أحمد شرقاوي: هل مات؟

هزّت زليخة رأسها: أجل.

نطقت الأرملة التي كان الخوف يعقد لسانها: لا.. لم يمت.. انظروا إليه..

قالت زليخة: لقد انهارت أعصابها من الخوف..

ثم أضافت: مات قبل ساعة، وقمت بمساعدة هذه المرأة التي ترمّلت في صباها بغسله ليلقى وجه ربه نظيفاً طاهراً..

انفجرت الأرملة: شاهدت أصابعه تتحرّك.. فارتجفت الممرّضة ماري التي حافظت على رباطة جأشها طوال الطريق، وظهر ذلك في حركة يديها المرتبكتين.

خلع أحمد شرقاوي طاقيته ومسح العرق عن جبينه.. ثم قال:
- سوف تتأكّد الأخت ماري بنفسها.

اقتربت الممرّضة. اصطنعت الشجاعة واقتربت.

وجّه أحمد شرقاوي مصباحه إلى وجه الشايب.. خيل إليه أن حركة ما صدرت عن الجفن..

وضعت الممرّضة سمّاعتها على قلبه، ثم هتفت:
- إنه حيّ.. إنه حيّ..
أقبلوا نحوها ينظرون مشدوهين.. أبعدتهم الممرّضة:
- من المستحسن أن تبتعدوا لكي يستنشق الهواء.

غرزت إبرتها في الوريد وأعطته حقنة الدواء.. ثم وقفت:
- من المتوقّع أن يتحسّن خلال الساعات القليلة..
وحدّقت الممرّضة ماري بوجه زليخة المأخوذة، وقالت لها:
- لقد أنقذت هذا الانسان من الموت.. الأعمار بيد الله، ولكنك

عندما غسلته قمت بتدليك قلبه المتوقّف فعادت له الحياة.

عند ذلك شعرت زليخة بأن باباً من أبواب الحياة يفتح مصراعيه على سعتهما أمامها.

تحلّقوا حوله ينتظرون.. وطال انتظارهم.

نفد صبره، فقال أحمد شرقاوي:

ـ متى يصحو الشايب؟

قالت الممرِّضة التي عاودتها الشجاعة: هل أنت ممرِّض؟

أجابها أحمد شرقاوي: لا..

قالت بصرامة: إذن عد إلى موقعك واتركنا نعالج هذا الشيخ.

أجابها بهدوء: إذا ذهبت فمن يعيدك إلى دار النقاهة؟

صمتت تماري. فكّرت قليلاً.. فقال مازحاً:

ـ ألا ترين أنني شخص لا يمكن الاستغناء عنه؟

تجاهلت الممرِّضة حديثه، وقالت بلهجتها الصارمة:

ـ اسمع يا شرقاوي، يجب أن يغادر الشايب وهاتان المرأتان المكان قبل بزوغ الفجر أنت تعرف أن الحرب الشاملة في طريقها إلينا..

ـ أين يذهبون؟

ـ إلى الضواحي القريبة.. هناك أمكنة مناسبة في وادي الدوحة.. أمكنة آمنة إلى حدٍّ ما..

ـ وكيف يصلون إلى الوادي؟

ـ يركبون معك إلى أقرب نقطة..

ـ الطريق الدولي خطر وسيارتي أوشك زيتها على النفاد.

ـ إذن ابحث لهم عن دابّة..

فكَّر أحمد شرقاوي قليلاً.. خطر له على الفور حصان أبو العسل..

ـ إنه حصان عجوز ولكنه يفي بالغرض على كل حال..

ـ ماذا تقول؟

ـ لقد وجدت الدابة.. سأغيب قليلاً وأحضرها.. ألا تتذكَّرين حصان (أبو العسل)..؟

ـ بلى.. أذكره..

ـ سأحضره في الحال.. إنه في رعاية الحجاوي..

ـ اذهب ولا تتأخَّر فعمَّا قريب يصحو الشايب وتعود له العافية.

كانت زليخة تتنصَّت على الحديث بانتباه، فخاطبت الأرملة على الفور: هيَّا.. أيقظي طفلك وجهِّزي نفسك.

كان الفجر يقترب، والندى يسيل على زجاج النافذة.. كان الصبح يتنفَّس..

عاد أحمد شرقاوي بالعربة والحصان، وإلى جانبه السنيورة.

عندما شاهدتها الممرِّضة عبست وسألته:

ـ ما الذي جاء بهذه المرأة معك؟

ـ أُصيب بيتها ولم يعد لها مأوى.

لم يكن الوضع يسمح لها بأن تؤنِّبه، فقال أحمد شرقاوي:

ـ على كل حال فإن السنيورة تعرف مكاناً يمكن اللجوء إليه في قرية على كتف الوادي.

بعد قليل كانوا قد ركبوا العربة. ركبت المرأة وطفلها، وحملوا الشايب بعناية، وصعدت زليخة إلى جانبه.

أما السنيورة فقد جلست في المقدمة وشدَّت اللجام.

مشت العربة، وظلَّ أحمد شرقاوي والممرِّضة يرقبانها إلى أن أوغلت في الظلام..

ـ هل تعتقد بأنهم سيصلون بسلام؟

ـ أجل..

ـ وهل تعتقد أنهم سيجدون مكاناً؟

ـ السنيورة تعرف عائلة فلاَّحية تمتّ بصلة قرابة لأمها.

أوغلت العربة إذن في الظلام.. حملت طائفة من الأنفس التي يحتاج كلّ منها إلى الالتصاق بالآخر...

- 30 -

صباح يشتعل. صباح تسيطر فيه الطائرات على الفضاء كلّه، يحرث صوتها الدماغ، ويغوص في الحنجرة، تأتي أسراباً أسراباً.. تقصف الشاطىء والتلال، تنطلق الصواريخ، تسقط فوق المواقع، تهتزّ قشرة الأرض، تهدّ الانفجارات جدران القلب، تتطاير الشظايا وتغوص في بطن الفضاء، تمزّق أحشاء الفراغ.

تأتي الطائرات من وراء التلال. تأتي من عرض البحر. تأتي من كبد السماء تندفع. تنقضّ. تنوش. تصعق. تناور. تداور وتبصق اللهب. اندفع أحمد شرقاوي عبر الخندق. يمشي. يزحف.. يغامر ويركض وهو واقف. وصل، فبادره حمزة:

ـ كيف جئت؟

ـ كان عليَّ أن أجدكم.

ـ وما أخباركم؟

ـ الشايب أغمي عليه ولم يصحُ من غيبوبته بعد. زليخة والأرملة وطفلها معه، وقد أرسلتهم جميعاً إلى وادي الدوحة.

. وعبرت الطائرات فوقهم.. فوقهم تماماً.. كأنها تمزّق الصخور.. كأنها تمزّق طبلة الأذن..

ـ إن أنكر الأصوات هو صوت الطائرات.

ثم خلع أحمد شرقاوي الطاقيّة عن رأسه. كان شعره أشعث أغبر كأنه لم يغسله منذ دهر..

وقال حمزة: ـ أصيبت مدافعنا على الشاطىء ودمّر معظمها.. وأضاف:

ـ مدافعنا المضادة للطائرات غير مؤثّرة أمام طوفان الطائرات.

قال أحمد شرقاوي: نقاتل بالكلاشنكوف والأربيجيه.

ـ هذا القصف المدمِّر مقدّمة لهجوم الدبّابات والمشاة.. هذا مقدمة لاحتلال البلدة..

ـ أين وصلوا؟

ـ هناك تجمّع للدبابات عند الجية وقوات الفوج الأول المدرّع والقوات المشتركة تشتبك معهم.

ـ إذن.. إنها المعركة الكبرى..

كان الرجال ينتشرون.. حتى طواقم المدافع اختفوا في الخنادق الخلفية. غيّروا مواقع مدافعهم وغطّوها بأغصان الشجر.. واختفى حسن الأمجد بين أشجار البرتقال.

ـ إنه يقصف تجمعات العدو كلما سنحت الفرصة.

ـ الأهالي بدأوا ينزحون بعد أن انهارت معظم الملاجىء..

ـ هذه الصواريخ التي تخرق الأرض لم يستعملوها من قبل.

رفع أحمد شرقاوي رأسه إلى السماء. كانت الطائرات تخلّف وراءها أعداداً لا تحصى من البالونات الحراريّة، وتنقضّ على الأخضر واليابس

أما حمزة، ففي تلك اللحظات التي تتكسر فيها رهبة الخوف، ظلّ يفكّر.. ما الذي يدور في خلده؟

اختفت الطائرات فجأة وتركت وراءها الحرائق والدخان والأنقاض.

قفز الرجال من خنادقهم وأخذوا يتفقّدون الخسائر..

ـ الآن سيبدأ الهجوم.

تحوّلت سبطانات المدافع نحو محاور القتال.

جاءت الأوامر عبر الأجهزة. انطلقت القذائف من كافة المواقع. انطلقت من كافة العيارات ومن راجمات الصواريخ المتنقّلة.

ـ دبابات العدو على أبواب الدامور.

ـ أصيب مقدمة الرتل فتراجعت بقية الدبابات.

عادت الطائرات من جديد فصمتت المدافع.. اختفى طواقمها في التحصينات.. قصفت قصفاً عشوائياً..

إنهم يعطون الفرصة للدبابات كي تتقدّم.

ـ في مثل هذه الحالات من الأفضل أن تلتحم قواتنا بقواتهم.

قال أحمد شرقاوي: ـ يا أخ حمزة، أنا أعمل سائقاً في هذا الموقع، وفي مثل هذه اللحظات لن أفيدكم، هل تسمح لي بأن أذهب للمواقع الأمامية على مداخل البلدة؟

سأله حمزة: وماذا ستفعل؟

ـ أستلم أربيجيه وأتصدّى للدبابات الزاحفة..

فكّر حمزة: ـ هل ترغب في ذلك حقّاً؟

هزّ أحمد شرقاوي رأسه: ـ الأربيجيه اختصاصي.

كان حمزة يفكّر والطائرات تعبر بسرعة تفوق سرعة الصوت. لماذا نبقى جميعاً ننتظر الموت في الخنادق؟

ـ اذهب أيها الفتى. قاتل. خذ القاذف والجعبة، خـذ ما تشـاء من الذخيرة.. ولترافقك السلامة

لبس أحمد شرقاوي قبعته الواسعة التي تغطّي شعره وجبينه، وتكاد تغطّي عينيه، ثم وقف وقفة استعداد وأدّى تحية مرحـة.. ثم عانق حمزة، وقفز من الخندق، وانطلق يعدو..

جاء حسن الأمجد بعد أن غابت الطائرات.

وقال على الفور: ـ لم يبق معي قذائف..

كان حمزة يفكّر..

كان مهموماً..

ـ كأنك لم تسمعني.. بماذا تفكّر؟

ـ أفكّر بالأهالي.. ماذا حلّ بهم؟

ـ غادر عدد كبير منهم إلى التلال المجاورة..

وكأنما تذكّر شيئاً، فقال حسن الأمجـد: ـ على فكـرة.. الزهـيري مفقود.. ذهب إلى بيروت ولم يعد..

ـ ولماذا ذهب إلى بيروت؟

ـ كلّفته قيادة الميليشيا بإحضار احتياطي الطحين.

ـ من الضروري أن نطمئن إذن على وضع زوجته..

ـ لقد غادرت تحت القصف وتـوجّهت إلى بيروت.. وربمـا تجده، إذ أن أهلهـا هناك.

وجاءت أصوات زخّات الرصـاص.. رصاص كـلاشن ورصاص رشاشات ثقيلة.. دوشكا وجرينوف وبين لحظة وأخرى تنطلق قذيفـة آربيجيه.

دخان أسود ودخان رمادي. أصوات شتّى يستطيع المرء أن يميّز من بينها أصوات جنازير الدبابات..

ـ تشتبك قواتنا معهم وجهاً لوجه.

ـ المعركة الآن عند الجسر.. تماماً عند الجسر..

ـ تم تدمير أربع دبابات حتى الآن..

ـ الدبابات تتراجع، ثم تعاود الهجوم..

ـ أحمد شرقاوي أصاب دبابة.. واجهها وأطلق قذيفة (بي.. سفن) على برجها فانفجرت.

تلفّت حمزة وسأل: من هذا الفتى؟

فأجاب حسن الأمجد: إنه سلطان..

ـ من أين أتى؟

ـ إنه من الحركة الوطنية، جاء من حارة الناعمة والتحق بنا صباح هذا اليوم.

ـ حقّاً إنه لشاب جيِّد.. منضبط ويتقن الرماية.

ثم تلفّت حمزة إلى الجهة الأخرى وسأل: ومن هذا الرجل الذي يتوكّأ على عكّازين؟

فأجاب حسن الأمجد:

ـ إنه من الشباب الذين يعيشون في نقاهة الهلال.

ـ ما الذي يستطيع أن يفعله هذا الرجل؟

ـ لقد كان رامي دوشكا قبل أن يُصاب في إحدى ساقيه.. ويمكنه أن يفعل شيئاً في هذا اليوم.

□ □ □

لقد ذهبوا.. اختفوا.. هجروا المكان.. اختفوا كما الرياح أو تسرّبوا كالماء من بين الأصابع.

العكاكيز. الأرجل المستعارة. الأيدي الاصطناعية. لم يبق أحد..

لم يبق أحد.. لم يبق سوى أكوام المعلّبات والتموين الجاف.. لم يبق سوى صناديق الأدوية والقطن والشاش الأبيض.. لم يبق سوى مواد الإسعاف الأوّلي والإسعاف الأخير.

بالله أين ذهبتم أيها الرجال..؟

بالله أين أنتم يا أطفالي الكبار؟

أنتم جبابرة أيها الأخوة. فحينما تعتصركم آلام الحديد المغروز في سيقانكم فإنكم تديرون الوجوه إلى الناحية الأخرى لكيلا يرى أحد دموعكم.

أين فررتم منّي؟ ليتني بقيت إلى جانبكم.. ليتني أجبرتكم على ركوب الشاحنة للخروج من هذا الطوق.

كانت الممرِّضة ماري تجلس فوق صندوق الأدوية وتحدِّث نفسها..

وظلَّت حزمة من الشمس تأتي عبر طاقات التنفّس وتسقط بين قدميها.

ـ دمَّرت قواتنا أربع عشرة دبابة أمام الجسر.

ـ عدلت الدبابات عن اقتحام البلدة وبدأت تعمل للتقدّم على (الأوتوستراد).

ـ دفعنا بالاحتياطي كله إلى ساحة المعركة..

ـ هل سمعتم الأخبار.. العقيد عبد الله صيام يقاتل على مداخل خلدة على رأس قوات كبيرة في طريقها إلينا..

ـ الله أكبر..

ـ هبَّت رياح الجنّة.. سقط ثمانية شهداء وعدد الجرحى لم يحصَ.

أصدر حمزة أوامره بفتح النار. .
قصفت المدافع. . المدافع القديمة والمدافع الجديدة.

صنعت حزاماً نارياً. . اشتعلت النيران في مقدمة الرتل فتراجعت الدبابات التي كانت في طريقها إلى المحور.

ومن جديد جاءت الطائرات المزمجرة.

تواصل القصف. . ترك الرجال خنادقهم. أخلوا المواقع المكشوفة. أصيب بعضهم بجراح بليغة. حرقت الطائرات الأخضر واليابس ولم تتوقّف.

أصيبت المدافع إصابات مباشرة. انفجرت سبطاناتها واشتعلت النيران بكل شيء. . تقدّمت الدبابات. . جاءت عبر الشارع العريض بجنازيرها بينما مدافعها تقصف في كل الاتجاهات. .

ثم أطلّت من على سطح البحر ناقلات الجنود البرمائية. . تراجع المقاتلون الذين أصيبت مدافعهم والذين نفدت قذائف قواذفهم والذين جرح لحمهم ونزف دمهم، تراجعوا إلى داخل البلدة. .

جاء أحمد شرقاوي لاهثاً: ـ الدبابات سيطرت على الطريق الدولي. .

فقال حسن الأجد: ـ دُمِّرت مدافعنا ولم يبق معنا سوى الأسلحة الفردية.

قال أحمد شرقاوي: معنا قاذف (الأربيجيه) وبضعة قذائف.

كان وجه حمزة قد أصبح داكناً بلون التراب. .

الشوارع خالية، البيوت مهجورة، والاتصال عبر جهاز اللاسلكي انقطع، القوات تقهقرت، وطعم الهزيمة مرّ كالعلقم. ناقلات الجنود

تأتي عبر البحر. . الأعداء يتكاثرون ويصنعون رأس جسر، وعمّا قريب يبدأون بتمشيط البلدة.

جاءت الممرِّضة ماري فزعة ترتعش.

جاء بعض المسنّين الذين يبحثون عن أبنائهم.

أحسَّ حمزة بأن الكون يضيق، والحصار يطبق، والنهاية تقترب.

ما العمل وكيف يتصرَّف وما الذي يصنع المعجزة؟ ما الذي يسند الأجساد التي توشك على الانهيار، ويسقي الأرواح العطشى، ويمسح جراح القلب، ما الذي يعيد التماسك إلى شظايا الجسد، وإلى مزق النفس؟

آن للوجع أن يعلن صرخته، وللصرخة أن تدوّي. . .

قال حمزة: يا إخواني لقد خضنا معركة غير متكافئة. . لقد سيطروا على الطريق ولكننا لم نهزم. . لم نرفع الراية البيضاء.

تساءل حسن الأمجد: هل نواصل القتال؟

أجابه حمزة: أجل. نقاتل وراء الخطوط. . ونكون مركز تجمّع للقوات التي أضاعت الاتصال بقياداتها.

وعند ذلك جاء أزيز طائرة مروحية تحلّق على ارتفاع منخفض، فانبطحوا أرضاً. .

قال أحمد شرقاوي: لعلها تستطلع إن كانت البلدة خالية أم لا. .

أجابه حمزة: لن يكون بمقدورهم تمشيط البلدة قبل يومين وسيحاولون قبل ذلك إقامة مقر قيادة وشؤون إدارية في المناطق التي سيطروا عليها.

مرَّت الطائرة المروحية الكبيرة من فوقهم واتجهت نحو التلال. .

ـ ربما يحاولون إنزال الأسلحة على التلال لإقامة مواقع جديدة . .

وقفوا، نفضوا الغبار العالق بثيابهم . . فقال حمزة :

ـ خطرت لي فكرة . . نريد مجموعة استطلاع لتحديد مقر قيادة العدو في الدامور.

نظروا إليه . . لقد زال التوتر، وانفردت الملامح القاسية . . لم يبتسم ولكن قوة الحياة كانت تطلّ من عينيه . .

- 31 -

فتح الشايب عينيه. شمس كالبرعم ونهار رائق..

كانوا قد فرشوا له تحت العريشة. أفاق مرتاحاً وحيوياً فقد تنفّست رئتاه الهواء النقيّ طوال الليل. الصباح يتنفّس. الضفدعة الخضراء تتنفّس، وأوراق العنب تتنفّس.

وكانت زليخة قد أفاقت باكراً فكنّست الغرف والممرّات، وعلفت الدجاج.. ثم جهّزت الشاي. وفي انتظار استيقاظهم جلست تراقب الديك الكبير الذي يختال بين الدجاجات..

جاء صاحب البيت وزوجته. كان فلاّحاً يلبس الشروال ويلفّ رأسه بحطّة سوداء، وكانت زوجته التي تلبس ثوباً زاهياً تحمل على طبق طعام الإفطار من اللبنة والزيتون والزبدة البلدية. أكلوا وشربوا وتبادلوا الحديث. حاولوا ألاّ يثقلوا على الشايب، حاولوا رغم كل شيء أن يتجنّبوا الحديث عما يحدث في الدامور.

كانت المرأة وطفلها قد شرعا في الاستيقاظ. يدعك الطفل عينيه، ويشعر بسنّه تتحرّك في فمه.. يشعر بأنها ستسقط بين لحظة وأخرى.. تقف المرأة متورّدة الوجه وتخلع ثوب نومها كأنها تخلع عن جسدها ثوب الترمّل.

أما السنيورة فقد ظلّت تغطّ في النوم العميق..

لقد جافاها النوم طيلة الليل ولم تنم إلاَّ في هزيعه الأخير، لذلك فقد سقطت في بئر النوم، سقطت في أضغاث أحلام. سقطت في النعاس الصعب..

واجه أحمد شرقاوي الدبابة المتقدِّمة..

للدبابة برج. للبرج مدفع. للمدفع سبطانة طويلة. وفوق البرج رشاش...

الدبابة تقترب.. يقصف مدفعها القذائف، ويبصق الرشاش سيلاً من النار...

أحمد شرقاوي يحمل الأربيجيه على كتفه.. الأربيجيه محشو بقذيفة. القذيفة جاهزة. القذيفة تتحينُ الفرص. الدبابة تقترب مثيرة الغبار والضوضاء. الجنازير تحفر الأرض، تدوس التراب بشفراتها الحادّة..

أحمد شرقاوي أصبح في مواجهة الدبابة تماماً..

الدبابة تقترب وتندفع، وأحمد شرقاوي يعدّل وضع الطاقية على رأسه، ثم يركع على قدم واحدة، ويبدأ في التركيز. ينظر عبر إبرة التسديد. وتقترب أصابعه من الزناد..

ثم في وقت واحد.. تنطلق قذيفة الأربيجيه، وصلية الرشاش. تنفجر الدبابة ويسقط أحمد شرقاوي شهيداً..

يأتي الملائكة على الفور، يحملونه على أكفهم إلى السماء..

يسألونه: ـ من هو ربك؟

يجيبهم: الله ربي.

ـ من هو نبيك؟

- محمد نبيّ.

وأين عطرك؟

عند ذلك يخرج زجاجة العطر من جيب قبعته ويقول: هذا هو عطري.

إذن سنحملك إلى الجنّة لأن الجنّة لا يدخلها إلاّ من كانت له رائحة طيّبة.

وصرخت السنيورة من أعماقها.

صاحت وانفجرت في البكاء.

أقبل أهل البيت، وجاءت الأرملة وطفلها، وتوكأ الشايب على كتف زليخة.

- ما الذي يحدث.. ما الذي يحدث؟

كان للسنيورة وجه أزرق، وعينان تشبهان الخرز.

- لقد رأيت حلماً مزعجاً.. لقد رأيت أحمد شرقاوي يموت...

- خير إن شاء الله.. خير إن شاء الله.

تمتم الشايب، وارتسم على وجهه الأسى، وربما الحزن أو ربما الغضب..

ترك زليخة ومشى.. بذل جهداً لكي يمشي ولا يسقط..

لقد عرف الآن للمرة الأولى في هذا العمر الطويل بأنه لم يعد يجدي..

عرف بأن الزمن غدّار، وأنهم الآن في المعمعة، وأنه لا يحمل معه في هذا المكان شيئاً، ولا حتى فشكة..

توكأ على شجرة تفاح. أسند ظهره إلى جذعها.

الأوراق خضراء يانعة مغسولة..

وفي لحظة مشى في عروقه نزق الشركسي.. الذي لم يهزم، وظلَّ يصارع الحياة...

ارتجفت قدماه، أحسَّ الشايب بأنه قد يقع.. تشبَّث بأغصان الشجرة. أمسك بكلتا يديه في عروقها الطريَّة. ملأ رئتيه برائحة لحائها وأوراقها ونوارها. اندفعت في عروقه قوَّة الحياة..

ولسببٍ ما تذكَّر كلبه الهرم الذي اختفى، ولسبب ما مرَّت بخاطره صور شتّى من أيامه الماضية..

ظلَّ يمسك بأغصان الشجرة لكيلا يقع أو يسقط، وأغمض عينيه وطلب من الرب أن يعطيه القوة.

جاءت زليخة. وقفت ولم تقترب. ظلَّت تراقبه وهو مغمض العينين.. نظرت إليه بحنوّ..

لم يكن أحد يتكلَّم ولكنها تسمع نداء الغريب يتردَّد صداه في صدر الغريبة.

- 32 -

حمزة شط البحر.

تسطع الفكرة وتتوقّد.

يتجمّع الشباب ويمسكون بنادقهم بقبضات أيديهم. يشرح حمزة الفكرة باختصار.. يشرحها بإسهاب..

يرسم بأصابعه خطوط الطول وخطوط العرض، ويتنبّأ بحالة الطقس، ويصمت... يتنصّت لأصوات القوى الخفيّة في أعماقه، لصليل السيوف وسنابك الخيل، وتبتسم عيناه. تولد لحظة فرح في وجهه، وينطلق في خياله شراع يبحر لأول مرّة...

يفكّر في صحراء الماضي، يفكّر بأرض الآتي الخضراء.. يفكّر بالطيف والكون الزمني ونداء الطبيعة العالي.. تنظر إليه الممرِّضة ماري التي أعدّت للمهمة حقيبة الإسعافات، ينظر إليه الفتى أحمد شرقاوي وهو يعبث بقبعته العجيبة، ينظر إليه سلطان الوسيم الذي يلبس بدلة مرقّطة، ينظر إليه حسن الأمجد الذي يلبس جعبته على صدره، ينظر إليه جيفارا العراقي الذي نهض باكراً وكتب رسالة ما ووضعها في جيبه (ربما تكون وصيته).

....

....

ابتسم حمزة لهم ورفع لهم قبضة يده: كل شيء على ما يرام.

حينما دخلت قوات جيش الدفاع بلدة الدامور سارعت إلى إقامة

مقر قيادي مؤقّت فيها وهو عبارة عن مبنى مؤلّف من ثلاثة طوابق.
نعم. . كان الأمر كذلك وكان المبنى ما يزال جميلاً ولم يصب بأضرار نتيجة القصف الاسرائيلي الجوّي والبحري. .(*)

□ □ □

عندما أصبحت الشمس عمودية. . عمودية تماماً تحرّكوا. . خرجوا من المخبأ. . خرجوا من أعماق القشرة الأرضيّة. . يحلمون بالوصول. . يحلمون بحمامة وخيوط عنكبوت.

يمشون خفافاً وثقالاً. ويمشون بعيون ثاقبة، البنادق معبّأة، والجعب عامرة، والقذائف محشوّة، والقنابل جاهزة.

يتقدّمهم حمزة. حمزة شط البحر وحمزة الخط السياسي. تسبقه المشاعر العنيفة، الانفعالات الحادّة.

تلفّت خلفه. يراقب الأقدام ونبضات القلوب. .

يمشون وراءه بانتظام. أشار إليهم بيده فهزّوا رؤوسهم.

الشمس ساطعة. وعباءة النهار واسعة. الرؤية واضحة، وغير بعيد تبدو مياه البحر شديدة الزرقة.

□ □ □

لم أشارك في المعارك التي دارت في الدامور، ولكنني سمعت عنها من الجنرال بن تسيون الذي كان يشرف على قيادة قواتنا هناك. . لقد طلب مني الحضور إلى البلدة للاجتماع بالجنرال بكوتيئل ادام. . كان

(*) من أقوال الجنرال افرايم ايدان ـ ١٩٦٠ ـ الذي أصيب في الدامور لمراسلي الصحف الاسرائيلية.

هنـاك عدد من كبـار الضبّاط الـذين طلب إليهم كذلـك الحضور إلى هذه البلدة للقاء الجنرال ادام من بينهم الجنرال بن تسيـون والعقيدان يسرائيل بلوخ، وشمعون تسادقيا والمقدم إيلاني.

كـان الجنـرال يكـوتيئـل ادام ينـوي من وراء عقـد اجتماع لكبـار الضبـاط في الدامـور أن يثبت لكل من منـاحيم بيغن وارئيل شـارون بأن الدامور قد سقطت وبأنها أصبحت بأيدينا.

كـان معي سائقي الشـاب، وعند مـداخـل البلدة قـابلنـا الـرائـد غزيت. . سار الرائد غزيت أمامنـا ليرشـدنا إلى المقـر القيادي المؤقّت الـذي أقامـوه حيث الاجتماع هنـاك قد بـدأ، وليس سرّاً القـول بـأن الخوف يتسلّل إلى قلبي وأنا في طريقي نحو ذلك المقر القيادي اللعين وكان لديّ شعور غريب بأن الأمور ليست كما ينبغي(*).

كانت ظلالهم قد تقلّصت. انكمشت وكادت تتلاشى.
والشمس عمودية أو تميل قليلاً.
للنهار عيون واسعة. .
والطريق تتعرّج. يمشون وراء الحيطان. يتوقّفون عند المنعطفـات. يجتازون منطقة خطر.
دبابات ترابط هنا وهناك.
جنود بلباس الميدان.
خوذ وأسلحة والمزيد من الخوذ والأسلحة.
حواجز وأسلاك، ولكنهم يعبرون كالنسمة، يعبرون كالومضة.

(*) من أقـوال الجنـرال افـرايم ابيـدان الـذي أصيب في الـدامـور لمراسـلي الصحف الاسرائيلية.

خرائب. دمار. بيوت منهارة. هياكل حديد سقط عنها الاسمنت. نوافذ فاغرة الأفواه.

نباح كلب. قلق. انتظار. ترقّب.

يمشي حمزة في المقدمة. يمشون وراءه.

الأسلحة مشهرة. يشوب نظراتهم بعض التوتر. يشوب نظراتهم بعض العنف. يأتي صوت سيارة عسكرية قادمة بالاتجاه نفسه، يرفع حمزة يده. يتوقّفون. يستدير لكي يتجنّبها. يقفزون وراء الأنقاض. يقفزون..

يحبسون أنفاسهم... السيارة ليست هدفهم.

□ □ □

في الطابق الأرضي من ذلك المبنى كان مكتب الجنرال بن تسيون وفي الطابق الثاني كان المقر الذي سيعقد فيه الاجتماع. كان الحاضرون هم:

الجنرال يكوتيئل ادام

الجنرال بن تسيون

العقيد الركن امنون سليع

المقدم ايلاني

الملازم موشيه

وأنا (الجنرال افرايم ابيدان).

كان أمام المجتمعين مجموعة كبيرة من الخرائط العسكرية الدقيقة، ومن ضمنها خرائط منطقة بيروت التي كان مقرّراً أن تكون المرحلة

القـادمة بعـد احتلال الدامور. لقـد أعدّ الاجتـماع من أجل التنسيق والتشاور خاصـة والخطوات القـادمة هي في غـاية الـدقّة والخـطورة، والسؤال الذي كان مطروحاً للنقاش: هل ندخل بيروت العاصمة وما هي خسائرنا في الأرواح؟

لقد بدأ الاجتـماع المذكـور حوالي الـواحدة والنصف ظهـراً وحينما وصلت المكان كانت الساعة تقترب من الثانية والربع بعد الظهر(*). .

. . . .
. . . .

استـأنفوا سـيرهم. . الطريق تتعـرّج. نبـاح الكلب يعلو. النبـاح يقترب.

كل شيء يبدو مهجوراً.

ـ يخيّـل إليّ أنه نبـاح كلب الشـايب. . لعله يعلن عن الضيـاع أو الوجع أو الغضب.

لا أثر لحياة، لكن الشمس بدأت تميل قليلاً قليلاً.

اقتربوا، فأشار حمزة إلى مبنى قريب.

ـ وصلنا الهدف. .

كان المبنى الذي يقع على المرتفع يتكوّن من عدة طوابق.

ابتسم أحمد شرقاوي. لا بدّ أن قلبه يخفق.

تفحّص حسن الأمجد سلاحه ونظر إلى السبطانة ليتأكّد أن شيئاً لم يسدّها أثناء التسلّل.

وتساءل سلطان: ما زال أمامنا حاجز واحد أليس كذلك؟

وأكّد ذلك الفتى جيفارا العراقي: هناك موقع قرب المبنى. .

نظر حمزة باتجاه المبنى. . لعله يتخيّل ما سوف يحدث.

(*) أقوال الجنرال ابيدان.

لعله يقتحم الأبواب ويطلق النار بغزارة. .

قال لهم: الموقع العسكري بعيد نسبياً عن العمارة. . والآليات تنتشر بعيداً ولن يكون لذلك تأثيره. . اطمئنوا. . .

كان الجنرالان شارون وإيتان يصرخان بعنف وباستمرار ويقولان بأن الوقت قد نفد وأن الدامور لم تسقط بعد. . لقد مضى وقت طويل دون أن يتمكّن الجيش من الدخول إلى البلدة والسيطرة عليها. والطريف في الأمر أن القوات التي دخلت المدينة اعتقدت فيما يبدو أنها سيطرت على الوضع(*). . .

. . . .
. . . .

ـ كم ساعتك؟

نظر أحمد شرقاوي إلى ساعته، خلع الطاقية ومسح جبينه قبل أن يقول:

ـ الثانية والنصف. .

شرح حمزة التعليمات للمرة الأخيرة، تعليمات الهجوم وتعليمات الانسحاب. ثم أعطى الأوامر بالزحف. .

□ □ □

بدأ الهجوم الفلسطيني المسلّح في الثانية وأربعين دقيقة. .

كان المهاجمون خمسة. . يحملون أسلحة خفيفة ومتوسطة، وكانوا جميعاً يرتدون الملابس المرقّطة، وأعتقد بأن كبيرهم كان يرتدي الخاكي العسكري الذي يشبه لباس جنودنا. . كبيرهم هذا كان له شوارب غليظة.

(*) أقوال الجنرال ايدان.

لقد دخل علينا الفلسطينيون الخمسة إلى داخل ذلك المقر اللعين فيما كنّا نقلّب الخرائط التي أمامنا، وكانت تفصل بيننا وبينهم مسافة لا تزيد عن بضعة أمتار.

دخلوا ووقفوا ينظرون إلينا جميعاً نظرات ساخرة، وكانوا يشهرون أسلحتهم.. جميعهم كانوا يشهرون أسلحتهم حتى أولئك الذين حملوا مدافع آر. بي. جي. لم يتكلّموا شيئاً. لم يقولوا كلمة واحدة. كل ما كانوا يفعلونه هو إشهار أسلحتهم نحونا وتوجيه نظرات ساخرة إلينا. أما نحن فقد سادنا الصمت أيضاً وأدركنا بأننا جميعاً وقعنا في قبضتهم. لم يستطع أحد منا أن يطلب النجدة.

استمرَّ الفدائيون ينظرون إلينا. يشهرون أسلحتهم نحونا لمدة استغرقت ثواني معدودة.. وحينها مدَّ الجنرال يكوتئيل ادام يده يتحسَّس مسدسه. أطلق الفلسطينيون النار علينا.. لقد أطلقوا نيراناً كثيفة جداً وسقطنا نسبح في دمائنا.

وأظن بأنهم اقتنعوا بأننا جميعاً قد قتلنا وإلاّ لما كانوا قد غادروا المكان..

لقد غطّت الدماء أرض تلك الغرفة الكبيرة التي كنّا نجتمع فيها ولم أعد أذكر شيئاً مما حدث بعد ذلك.

أفقت في المستشفى وقيل لي عندها بأن الجنرال يكوتيئل ادام قد قتل ومعه كل من العقيد الركن سبيلغ والمقدم إيلاني، في حين كانت إصابة الباقين خطيرة للغاية(*).

(*) أقوال الجنرال ايبدان.

- 33 -

تحت النافذة صاح الديك صيحته الأولى.

فتح الطفل عينيه، كأن قرصاً من عبّاد الشمس قد أزهر وتفتّح.. شعر بخمول وكسل فأغمض عينيه وواصل النوم.

صاح الديك صيحته الثانية.. ففتح الطفل عينيه مرة ثانية كأن عصفوراً يطير من عشّه ويشرع في الطيران لأول مرّة..

فتح عينيه جيِّداً، لم تكن أمّه تنام إلى جانبه، فأزاح الغطاء جانباً ووقف.. وعند ذلك أحسَّ بأن السنّ على وشك السقوط كما أحسَّ بطعم الدم المالح في فمه.. خرج من الغرفة.. فتح الباب المطل على البستان وخرج، فشاهد النساء يشعلن النار ويخبزن الأرغفة..

اقترب من أمّه، كانت الكآبة قد زالت عن محياها، وحلَّ محلّها ابتسامة لم يشاهد مثلها من قبل.

وكانت زليخة ترقّ العجين والشايب يغذّي النار بالعيدان.

أمّا السنيورة فقد انهمكت في كنس الممرّات.. فيما كان الحصان يرعى قرب العربة..

قال الطفل لأمّه: ـ إن سنّي على وشك السقوط.

قرصته من خدّه وقالت: اذهب والعب ولكن حذار من أن توقظهم.

وأشارت إلى الطرف الآخر، هناك، تحت أشجار التفاح. .

كانوا ينامون. الأسلحة تنام إلى جانبهم. ينامون بكامل ثيابهم، ينامون بأحذيتهم. . كانوا خمسة. لم يستطع أن يميّز ملامحهم في البداية، ولكنه استطاع فيما بعد أن يعرفهم. .

صاح الديك مرّة ثالثة. .

صعد الطفل إلى سطح المنزل. .كانت سنّة قد سقطت فأخذ يرقب بزوغ الشمس. .

كانت أمّه قد قالت له عمّا يتعينّ عليه أن يفعل عندما تسقط سنّه. . لم يطل انتظاره، بزغت الخيوط الأولى من وراء الجبال البعيدة. . أمسك بالسنّ ورفع يده عالياً وألقى بها في وجه الشمس وقال بما يشبه الهمس:

يا شمس يا شموسه
خذي سنّ الأطفال
واعطيني سنّ الرجال

صدر من هذه السلسلة

من أعدادنا القادمة

- النهر المسافر .... البيلى عبد الحميد
- ثلاث مسرحيات قصيرة .... د. سلطان بن محمد القاسمى
- قصائد الوجد والدم ..... مختارات من شعر فدوى طوقان

اختيار : د. محمد زكريا عنانى

- انكسارات القلب الأخضر – مختارات من قصص مشرى

اختيار وتقديم : سمير الفيل

- رحلة الغرناطى .... ربيع جابر



المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@ 6 oct.ie-eg.com

آفاق عربية

إن كاتب هذه الرواية يحتشد بكل أدواته وقدراته على الصياغة والتعبير ، راصداً تفاصيل الحياة اليومية لمجموعة من المناضلين ، يتحركون فى بحر من البشر المسكونين بشوق للأمان والدفء ، مفعمين بالخصب ومحبة الحياة وذكرى الشهداء .



السعر : ٢ جنيه

الشركة